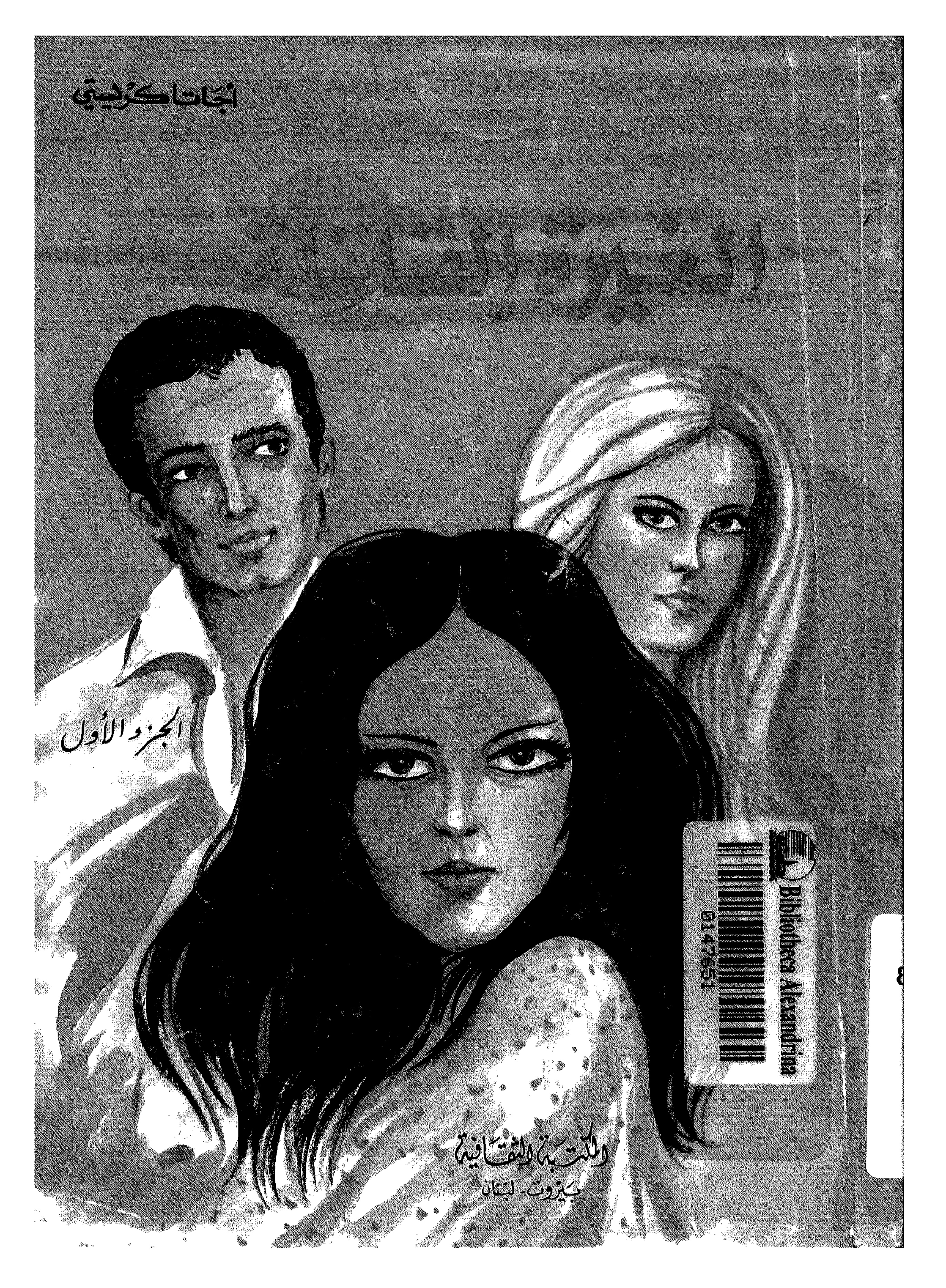

أجاثا كريستي
الغيرة القاتلة
الجزء الأول
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
01147651





الغيرة القاتلة



أجاثا كريستي

الغيرة القاتلة

الجزء الأول

المكتبة الثقافية
بيروت

الغيرة القاتلة

الفصل الاول

الام

- ١ -

وقفت آن برنتيس على رصيف القطار ، في محطة فيكتوريا ، واخذت تلوح بيديها ..

وسار القطار وهو يزمجر ويطلق صفارات ثاقبة متتابعة !

ثم ابتعد القطار واختفى معه وجه سارة الصغيرة ، واستدارت آن يبطء فوق الرصيف نحو باب الخروج .. والألم العميق يأخذ بمجامع قلبها .

سارة الصغيرة الغالية .. كم سنشتاق اليها ..

صحيح . إنها لن تغيب أكثر من ثلاثة أسابيع ، ولكن كيف تقضي الأم المحبة هذه المدة (الطويلة) بدون سارة ؟ وكم سيبدو المنزل كئيباً خالياً بدون ضحكات سارة البلورية ؟

ثلاثة أسابيع ولن يكون في المنزل إلا آن برنتيس وخادمتها الخاصة أديث ..

امرأتان في خريف العمر .. امرأتان عبرتا رحلة الحياة حتى أصبح أي شيء يرضيهما ، أما سارة فإنها مفعمة بالحياة ، مليئة بالحيوية ، واثقة من رأيها في كل شيء ، وإن كانت لا تعدو أن تكون طفلة جميلة سوداء الشعر !

لا .. لا ! ما أبشع هذا التفكير .. إنه تفكير خليق بأن يغضب سارة التي لا يغضبها شيء — — وكل الفتيات اللاتي في سنها — مثل التلميح بأنها لا تستشير أسرتها في شيء ..

إنها تقول في الحال « كلام فارغ يا ماما » ، بعكس الحال في الأمور (التافهة) الأخرى مثل غسل الثياب وكيّها ، ومثل المكالمات التليفونية التي لا تنتهي ..

« من فضلك يا ماما اطلبي صديقتي كارول بالتليفون واعتذري لها عن تأخري عليها » .. أو « آسفة يا ماما كنت أنوي أن أرتب حجرتي ولكني مستعجلة جداً » !

ثم قالت آن لنفسها : « عندما كنت شابة صغيرة في سن سارة . »

وابتسمت أساريرها وعادت بها الذكريات إلى الماضي . لقد نشأت في منزل محافظ ، وكانت أمها في الأربعين عندما أنجبتها ، وكان والدها يكبر أمها بخمسة عشر عاماً على الأقل ..

كان الأب - حسب التقاليد القديمة - هو رب البيت ، ولم يكن للعواطف أي مجال في مثل هذا الجو المحافظ ، وكانت أمها تكتفي بأن تقول : ها هي ابنتي الصغيرة ..

وكان والدها . الذي لا يبتسم إلا نادراً .. يسميها « لعبة » بابا الصغيرة .

وعندما شبت آن عن الطوق كان عليها أن ترتب المنزل وأن تساعد في المطبخ ، وفي التسويق ، وفي الرد على الخطابات وفي كل أمور العائلة ، ولم تكن آن تجد في ذلك أي غرابة .

إن (البنات) يولدن لخدمة ذويهن وليس العكس !

وهنا سألت آن نفسها : أي الحالين أفضل ؟ الماضي أم الحاضر ؟

ومن العجيب إنها لم تستطع الاجابة بسهولة على هذا السؤال .

* * *

ووقفت في سيرها أمام فاترينة وهي تبتسم في حيرة بحثاً عن إجابة معقولة عن خواطرها ..

وجذب انتباهها كتاب يبدو عليه أنه ممتع (لكي تقرأه هذا المساء

وهي تجلس أمام المدفأة) ..

وفي الحال جاءها الجواب .. لا يهم — هذا هو الجواب .. لا يهم حقاً من الذي يخدم من : الابنة أم الأسرة .. إن الأمر سيان ، هذه كلها أمور ظاهرية لا تؤثر اطلاقاً على الروابط الأسرية ! التي تربط بين الأطفال وبين ذويهم .

إنها تعرف إن بينها وبين ابنتها سارة حب غامر عميق .

وعند ذلك اشارت آن الكتاب الذي أعجبها وهي ترجو أن تجد به من المتعة ما يعوضها عن افتقادها سارة هذا المساء ..

ثم سارت وهي تحاول أن تتغلب على خطرات قلبها : « سوف أفتقد سارة .. طبعاً ، سوف أفتقدها جداً ، ولكني سوف أنعم بالهدوء والسلام لمدة ثلاثة أسابيع » ..

وفضلاً عن ذلك ، فإن أديث سوف تتمتع بشيء من الراحة أيضاً ، وسوف تتمكن من القيام بعملها وهي آمنة من تدخل سارة المستمر في كل شيء ، ومن المواعيد الغريبة التي تحب ان تتناول فيها الطعام ، ومن أصدقاء سارة العديدين الذين يتقاطرون على المنزل في أي لحظة طالبين الحلوى والشاي والطعام !

لن تقول سارة : ماما هل في الامكان التبكير في موعد الغذاء ؟ إنني سوف أذهب إلى السينما مع الشلة !

أو : الو .. ماما ؟ لا تنتظريني على العشاء الليلة ..

لا شيء من هذا كله حمداً لله ، لن تدق أديث المسكينة كفاً بكف

ولن ترفع يديها إلى السماء في استسلام ؟

ولا يعني ذلك أن أديث تكره سارة .. إن أديث موجودة في المنزل منذ عشرين عاماً ، قبل عشرين عاماً ، قبل مولد سارة ، وهي التي تلقتها على يديها من عالم الغيب ..

إنها لا تكرهها ، إنها تزجر وتصيح وتصرخ ، ولكنها في الواقع تحب سارة كثيراً .. إنها أمها الثانية !

ومن الذي يستطيع ان يكره سارة ؟

إنها فقط فترة راحة وسلام ، وهدوء ايضاً ، هدوء بارد .

وشعرت آن بخوف غريب يجتاحها ويجعل اطرافها ترتجف . ورغماً عنها وجدت نفسها بحـــالة هدوء بارد ، لا شيء إلا الهدوء البارد الذي يمتد عبر ثلوج الوحـــدة والشيخوخة إلى الموت .. لا شيء يمكن التطلع اليه .. لا أمل يمكن التفكير فيه .

صاحت آن وكأنها ترد على خواطرها : « ولكن مــاذا اريد ؟ لقد تمتعت بكل شيء في حياتي .. تمتعت بالحب والسعادة مع باتريك الحبيبا طفلتنا الغالية سارة ، لقد حصلت على كل مـــا اريده من الحياة .. والآن .. انقضى كل هذا .. الآن سوف تتابع سارة الحيـــاة حيث توقفت أنا .. سوف تتزوج وتنجب اطفـــالاً ، وسوف أصبح جدة !

وابتسمت آن .. من المؤكد إنهـــا سوف تكون سعيدة عندما تصير جدة .. سوف يكون عندها حفنة من الأحفاد الرائعي الجمال .

اطفال سارة .. سوف يكونون اشقياء متعبين مشاكسين ، ولكن سوف يكون لهم شعر سارة الأسود الجميل ، وسوف تقرأ وتحكي لهم القصص والأساطير !

ما أجمل هذه الصورة .. ولكن الخوف البارد الغريب ما زال يقبض على جماع قلبها .. لو أن باتريك لم يمت !

لقد مات منذ زمن بعيد جداً ، عندما كانت سارة لا تزال في الثالثة من عمرها.. ولكنها لم تنس قط ذكرى ذلك الزوج الشاب الجميل .. الذي ملأ حياتها حباً وحيوية .. ثم اختفى كما يختفي الشهاب ..

لماذا تذكره بقوة الآن ؟

لماذا تشعر بالحزن يتجدد على باتريك ، وكأنما قد فقدته بالأمس فقط ؟

نعم لو ان باتريك كان على قيد الحياة لكان في امكان سارة أن تسافر كما يحلو لها ، وأن تتزوج .. وفي نفس الوقت كانت آن تبقى مع باتريك لكي يواجها معاً خريف العمر . نعم ما كانت آن لتكون وحيدة هكذا ..

وصلت آن إلى ميدان المحطة الصاخب المزدحم ، وقالت لنفسها :

« ما أشد ما تشبه هذه الأوتوبيسات الضخمة الحمراء وحوشاً خرافية تنتظر الطعام .. وما أكثر ازدحام الميدان بالناس .. أناس يسرعون ، وأناس يروحون ، وهم يتكلمون ويضحكون ويتواعدون

على اللقاء »

ومرة أخرى عاود آن ذلك الشعور الخفيف البارد . الشعور بالوحدة المطلقة ..

قالت لنفسها وهي تحاول أن تقاوم هذه الخواطر الغادرة :

« لقد حان الوقت الذي يجب أن تستقل فيه سارة بنفسها ، نعم يجب أن أكف عن تعلقي الزائد بها هكذا . ويجب أيضاً أن أقاوم تعلقها الزائد بي .. من الظلم أن نشجع الصغار على التعلق بنا إلى هذا الحد . من الظلم ، بل من الشر أيضاً .. يجب ان اشجع سارة على ان تخطط حياتها بنفسها .. وعلى أن تختار اصدقاءها بنفسها . »

وهنا ابتسمت ان ، لأن سارة في الحقيقة لم تكن قط في حاجة إلى تشجيع في أي شيء .

إن سارة تختار أصدقاءها بنفسها دائماً ، وتفعل ما يحلو لها في أي وقت دون الرجوع إلى امها في أي شيء . صحيح انها تعبد أمها ، ولكن من الصحيح أيضاً إنها تأخذ رأيها الخاص في كل شؤون حياتها !

إن آن بلغت الواحدة والأربعين من عمرها ، ولعل هذا السن يبدو لسارة وكأنه أرذل العمر ، في حين أنها كانت لا تزال مترددة في ان تطلق على نفسها (امرأة في منتصف العمر) !

لم تكن تقاوم السنين . لم تكن تستعين بالمساحيق ، ولا الثياب

الأنيقة الزاهية الألوان ، ولكنها كانت تشعر بينها وبين نفسها انها ليست امرأة في منتصف العمر .

وتنهدت ان : ما اغباني .. ما هذه الوساوس الحمقاء ؟ لعل السبب هو رؤيتي سارة تبتعد عني !

ماذا يقول الفرنسيون عن الفراق ؟

الفراق هو موت مؤقت ..

نعم .. هذا حقيقي .. اين سارة الآن ؟ إنهـــا ميتة بالنسبة لي الآن .. وانا ميتة بالنسبة لسارة ..

الفراق شيء غريب .. التباعد بالأجسام ، ها هي سارة الآن تحيا حياة خاصة بها ، وآن ايضا تحيا حياة خاصة بها .

وداخلها عند ذلك سرور صبياني مباغت : إنها حرة تمـاماً الآن ، تستطيع الآن ان تستيقظ متأخرة أو مبكرة كما يحلو لها .. تستطيع ان تخطط أيامها حسب هواها .. تستطيع ان تتناول افطارها في الفراش ، وتستطيع ايضاً ان تتناول عشاءها مبكرة ، كي تذهب إلى المسرح او إلى السينما !

او تستطيع ان تأخذ القطار – اي قطار – وتذهب إلى الريف كي تتمشى بين الحقول الخضراء والغـــابات العذراء ، وتستنشق هواء الريف النقي . وترى السماء الزرقـــاء ، كما تبدو من بين غصون الأشجار ..

ولا يعني ذلك أنها ما كانت لتستطيع ان تحظى بكل هذه المتع في

وجود سارة ..

إن سارة لا تتدخل في حياتها بأي شيء ، ولكن الذي كان يحدث أنها كانت تجد متعة اعظم في مراقبة سارة وهي تخرج وتعود .

ما أبدع ان تكون المرأة أماً . إنه شيء مثل ان ترى نفسها تولد من جديد ، وتنمو من جديد ، وتستكشف الدنيا كلها من جديد وهي بمنجاة من آلام الشباب وعذاب المراهقة .

إن التجربة تعلمها إن ما يبدو خطيراً قد لا تكون له اهمية ، وتستطيع ان تفكر فيه في هدوء وهي تبتسم .

قد تصيح سارة : ولكن يا ماما الموضوع خطير جداً ، إنه مسألة حياة او موت .. إن صديقتي ناديا تشعر ان مستقبلها كله في خطر ، ارجوك الا تبتسمي يا ماما !

ولكنها تبتسم ، لأنها تعلم ان مستقبل اي فتـاة لا يكون قط في خطر ، وان الحياة من المرونة والرحابة بحيث تسمح بآلاف الحلول لكل المشاكل ..

لقد عملت آن فترة من شبابها في سيارة اسعاف ابان الحرب ، وتعلمت من مشاهداتها مدى تفاهة كل شيء ..

تعلمت إن المشاعر الصغيرة مثل الحسد والحقد والغيرة والسرور والخيلاء كل ذلك لا يساوي شيئاً عندما يشعر الانسان في الحرب انه معرض الموت في أي لحظة !

وتعلمت أيضاً أنه من الصعب كثيراً أن يصنف المرء النـــاس إلى

أخيار او أشرار ، كما كانت ترى الناس في شبابها ..

ما اكثر ما رأت شخصاً يخاطر بحياته في شجاعة رائعة لينقذ حياة شخص من حادث تصادم ، ثم ترى هـــذا الشخص الشجاع نفسه يرتكب عملا وضيعا مثل أن يسرق محفظة الشخص الذي أنقذه من الموت .

الناس لا يعيشون في قوالب جامدة

* * *

وفي هذه اللحظة وجدت آن نفسها أمام سيارة تاكسي . وسألت نفسها بسرعة :

- أين أذهب الآن ؟

لقد كان توديعها لسارة هو كل عملها هذا الصباح ، وفي المساء كانت على موعد للعشاء مع جيمس جرانت .. جيمس العزيز العطوف .

قال لها بالأمس وهو يؤكد دعوته للعشاء :

- سوف تشعرين بفراغ بعد فراق سارة ، تعـالي ودعينـا نقضي أمسية بديعة !.

كان ذلك كرماً من جيمس الذي كانت سارة تسخر دائماً من احترام أمها له وتقول :

- خادمك المطيع يا ماما ؟

إن جيمس حقاً شخص رقيق وديع بالرغم من أن آن كانت تشرد كثيراً عندما يحكي لها حكاية من حكاياته العديدة التي تتشعب بدون نهاية ..

وكانت تلوم نفسها دائماً . إن صداقة خمسة وعشرين عاماً تفرض عليها – على الأقل – أن تصغي لحكايات جيمس الساذجة التي يجد لذة كبيرة وهو يحكيها .

نظرت آن إلى ساعتها ، وفكرت أن تذهب إلى (مخازن الجيش والأسطول) ، كي تشتري بعض أدوات المطبخ التي طلبتها أديث ، وفي الحال استقلت التاكسي ووصلت إلى المخازن .

سارت بين صفوف الأدوات المعدنية اللامعة وأطباق الصيني البيضاء وهي تتفحصها بذهن شارد ، وتسأل عن الأسعار (التي ارتفعت ارتفاعاً مخيفاً) ، وكانت تشعر طول الوقت بذلك الرعب البارد يسيطر على حواسها .

وأخيراً .. لم تستطع مقاومة هذا الشعور ، فقصدت إلى أقرب تليفون ..

– هل من الممكن أن أكلم السيدة لورا ويتستابل من فضلك ؟

– من المتحدث ؟

– مسز برنتيس !

– لحظة واحدة يا مسز برنتيس ؟

وما هي إلا لحظة حتى جاءها صوت صديقتها العميق :

ـ آن ؟

ـ أوه . لورا .. أعرف إنني لا يجب أن أتصل بك في هذا الوقت . ولكني ودعت سارة لتوي وكنت أتساءل ما إذا كان عندك بعض الوقت .

قاطعتها لورا :

ـ فلنتناول الغذاء معا .. ما رأيك ؟

ـ أنت ملاك !

ـ سوف انتظرك إذاً ، الواحدة والربع تماما

ـ ٢ ـ

كانت الساعة الواحدة وأربعة عشر دقيقة عندما خرجت آن من سيارة التاكسي ، ودفعت الأجر للسائق ..

ثم دقت جرس الباب ..

في الحال ، فتحت لها الباب الوصيفة هاركنيس وقالت لها باسمة :

ـ تفضلي بالصعود إلى الدور الأعلى يا مسز برنتيس وسوف تلحق بك السيدة لورا بعد دقائق قليلة ..

صعدت آن السلم حيث مائدة الطعام معدة في انتظارها .

كانت الحجرة تبدو وكأنها حجرة رجل ، وليست حجرة امرأة .. مقاعد ضخمة وثيرة وكميات هـائلة من الكتب ، وستائر ثمينة ذات ألوان زاهية ..

ولم تنتظر آن طويلا .. وسرعان مـا جاءهـا صوت لورا العميق يسبقها على السلم ، ودخلت لورا الحجرة حيث تعانقت المرأتان في ود صاف .

كانت السيدة لورا امرأة في الرابعة والستين ، وكان لهـا مظهر الانسانة التي تعرف أن لها شخصية هامة في المجتمع . كان كل ما فيها أكبر من حجمه الطبيعي في مثيلاتها من النساء ، صوتها وصدرها وشعرها الفضي وأنفها الذي يشبه منقار النسر ..

قالت لورا :

– ما أسعدني برؤيتك يا صغيرتي .. أنت تبدين أكثر جمالا يومـا بعد يوم .. وأرى أنك أحضرت معك باقة من زهر النرجس ، هذا لطف منك ، كما أن النرجس الذابل هو الزهر الذي يشبهك ؟

قالت آن :

– النرجس الذابل ..

– بل حلاوة الخريف التي تختفي خلف أوراق الشجر .

ضحكت آن وقالت :

– ماذا حدث لك يا لورا اليوم ؟ أنت مجـاملة جداً على عكس عادتك .

– إنني أحاول أن أكون ظريفة ، ولو أن ذلك يكلفني جهداً نفسيا

كثيراً ، ولكن دعينا نأكل فوراً ، باسيت .. أين باسيت هذه ؟ ما رأيك في هذه الأصناف من الطعام يا عزيزتي ؟

– هذا كثير جداً يا لورا حقا ، كنت أتوقع غذاء بسيطا !

قالت لورا :

– كلام فارغ .. اجلسي ، إذاً سافرت سارة إلى سويسرا ؟ كم ستبقى هناك ؟

– ثلاثة أسابيع ..

– بديع جداً ؟

وانتظرت لورا حتى انتهت الخادمة باسيت من وضع باقي الأصناف على المائدة ، ثم أخذت ترشف قدحا من اللبن ، قالت :

– من المؤكد أنك سوف تشعرين بوحشة وفراغ بعد سفر سارة ، ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو كل ما يزعجك ، هيا يا آن اخبريني بكل مشاكلك ، ليس أمامنا وقت كثير ، أنا أعرف انك تحبينني ، ولكني أيضا اعرف أنه عندما تطلبني صديقة وترجو رؤيتي فوراً فإنها تبحث عن حكمتي لا عن جاذبيتي .

قالت آن في خجل :

– انا اسفة حقا يا لورا .

– كلام فارغ يا عزيزتي .. ذلك لا يغضبني البتة ، بل إنني اجده نوعا من التقدير .

قالت آن في سرعة :

ـ أوه . لورا .. اعرف إنني حمقاء .. حمقاء تماماً .. ولكني اجد نفسي فريسة لرعب مفاجيء .. عندما كنت في ميدان محطة فيكتوريا ، وسط كل هذه الأوتوبيسات ، شعرت بأني وحيدة !

قالت لورا في تفكير :

ـ نعم .. إني افهم ذلك !

استمرت آن قائلة :

ـ لم يكن السر فقط هو سفر سارة ، كان شيئاً اخطر من ذلك بكثير ..

أومأت لورا برأسها ولكنها لم تتكلم !

قالت آن :

ـ أعني ان الشعور بالوحدة لا يجب ان يكون شيئاً جديداً بالنسبة لي ، فأنا دائماً وحيدة ؟

ـ إذاً فقد عرفت ذلك أخيراً ، نعم إن الواحدة منـا تكتشف ذلك عاجلا أم اجلا ، والغريب أنها دائماً صدمة .. ما هو عمرك على فكرة يا آن ؟ واحد واربعون عاماً ؟ إنه سن مناسب جـداً لذلك الاكتشاف ، لأنه إذا تأخر بك العمر في الاكتشاف فـإنك تتعرضين للانهيار .. وإذا تقدم بك العمر فإنك تحتاجين لشجاعة نفسية هائلة للاعتراف به .

قالت آن في فضول :

ـ هل شعرت قط بأنك وحيدة يا لورا ؟

تنهدت لورا وقالت :

– طبعاً .. لقد جـــاءني ذلك الشعور أول مرة وأنا في السادسة والعشرين ، وأنا واحدة من أفراد عائلة كبيرة يرفرف عليها الحب والوئام لقد أدهشني ذلك الشعور وملأني بالرعب ، ولكني سلمت به ، لا يجب أن ننكر الحقيقة أبداً .. يجب أن نسلم بالحقيقـة التي تقول بأنه ليس للانسان في هذه الدنيا من رفيق يصاحبه من المهد إلى اللحد إلا شخص واحد .. نفسه ! ويجب على الانسان أن يوطد علاقته بهـذا الرفيق .. أن يتعلم كيف يصادق نفسه .. هـذا هو الواجب ، وهو ليس سهلاً دائمـاً ..

– لقد شعرت بأن الحياة تبدو فجأة فارغة من المعنى ومن الهدف ، إني أعترف لك بكل شيء يا لورا . شعرت بأن الحياة أصبحت عبارة عن سنوات تمتد دون أن يملأها شيء هام ، لا حزن ولا فرح ولا جديد ، أوه . أعتقد اني امرأة حمقاء ، لا أكثر ولا أقل ؟

قاطعتها لورا :

– لا .. لا يا عزيزتي .. حافظي على صوابك .. تذكري مـــاضيك الرائع .. لقد أديت عملاً عظيماً أبان الحرب .. لقـد نجحت في تربية سارة وعلمتها كيف تكون فتاة رضية الخلق ، وكيف تحب الحيـــاة بالطريقة الهادئة التي تحبين بها الحياة .. يجب أن يكون ذلك كافيـاً جداً عزاء لك .

– يا عزيزتي لورا ، أنت حكيمة وعطوفة ، ولكن أخشى إنني أفرط في حبي لسارة أكثر مما ينبغي !

– كلام فارغ ..

- إنني أخشى دائماً أن أصبح واحدة من الأمهات اللاتي يحببن بناتهن إلى درجة السيطرة والديكتاتورية التي تحول حياة بناتهن إلى جحيم ؟

قالت لورا في هدوء :

- بل هناك كثير من الأمهات يفكرن مثلك إلى درجة أنهن يتعودن على ألا يحببن بناتهن !

قالت آن في استنكار :

- ولكن السيطرة شيء فظيع .

- طبعاً .. لقد رأيت هذه الحالة كثيراً .. رأيت امهات (يحتكرن) بناتهن ، واباء (يحتكرون) أبناءهم ويفرضون عليهم حياتهم الخاصة ، ويفرضون (الماضي) على (المستقبل) .. إنهم يحاولون ان يعيشوا حياة أبنائهم وهذا شيء ضد الطبيعة ..

لقد كان عندي ، في وقت من الأوقات عش طيور في حجرتي ، وعندما فقس البيض ، ونما ريش الطيور الصغيرة طارت ما عدا واحداً . أراد ذلك الطائر الصغير أن يبقى في العش ، وأن يعتمد في طعامه على أمه ، ورفض أن يتعلم الطير . وقد ازعجت حالته امه كثيراً . كانت تطير أمامه وترفرف بجناحيها لكي تجعله يتعلم منها ، ولكن بدون فائدة ..

أصر ذلك الصغير اصرارا غريباً على البقاء في مهده ، واخيراً امتنعت الأم عن اطعامه ، كانت تحضر الطعام فوق منقارها ، ولكنها تقف خارج العش لكي يخرج .

وهناك أشخاص مثل هذا الطائر .. أطفال لا يريدون أن يشبوا عن الطوق . ولا يريدون ان يواجهوا متاعب الحياة ومشاكل النضوج ،

والعيب ليس في تنشئتهم ، وإنما في أنفسهم ؟

وتوقفت لورا عن الكلام لحظة ، ثم عادت تقول :

- بجانب الأمهات اللاتي يحببن السيطرة على الأطفال ، هناك أيضاً الأطفال الذين يحبون أن تسيطر عليهم أمهاتهم .. هذا نوع من تأخر النضوج العاطفي ؟ أم أنه نقص في القدرة على النضوج ؟ النفس البشرية ما زالت غابة مليئة بالطلاسم والألغاز .

قالت آن التي لم تهتم بهذه العموميات :

- هل تعتقدين إني أم تحب السيطرة على ابنتها ؟

- لقد كان رأيي دائماً انك وسارة تتمتعان بعلاقة ممتازه ، وإن كلا منكما تحب الأخرى حباً صادقا ، وإن كانت سارة في الحقيقة اصغر من سنها .

صاحت ان :

- اصغر من سنها ؟ إنني أعتقد دائماً انها اكبر من سنها .

قالت لورا :

- لا .. لا .. إنني أشعر دائما انها اصغر من عمرها !

اعترضت آن :

- ولكنها ذات شخصية مستقلة تماما .. ولهـا رأيها الخاص في كل شيء .

- هذا معناه أن لها رأي (العصر) الذي تعيش فيه ، ولكن سوف ينقضي زمن طويل قبل أن يكون لها رأيها الخاص في اي شيء ، بجانب ذلك ، فإن الجيل الجديد من الفتيات يبدو ذا شخصية مستقلة ، والسبب

في ذلك انهن يفتقدن الثقة في انفسهن حقا ..

إننا نعيش في زمن قلق ، ولا شيء يبدو ثابتـا ، وذلك يؤثر على الجيل الجديد اكثر مما يؤثر علينا ، وذلك أيضا هو أساس كل المصائب والمتاعب والجرائم : الحاجة إلى الاطمئنان .. المنازل المتصدعة .. الحاجة إلى القيم الاخلاقية .. إن النبات الصغير يحتاج إلى سند قوي لكي يصبح شجرة باسقة .

ثم ابتسمت لورا فجأه وقالت :

– ها أنذا أتحول إلى واعظة مثل عجوز مخرفة ، هل تعلمين لماذا أشرب اللبن في كل وجباتي ؟

– لأنه مفيد صحيا !

– كلام فـارغ .. بل لأني أحبه .. يجب أن يفعل الانسان ما يحبه فقط .. اخبريني الآن ، هل مـا يزال ذلك الرجل اللطيف جرانت يطاردك ؟

احمر وجه آن وضحكت ، ثم قالت :

– نحن اصدقاء قدامى !

– لقد عرض عليك الزواج اكثر من مره ، اليس كذلك ؟

– نعم ، ولكن هذا كلام فارغ في الحقيقة ..

ثم ترددت لحظة وسألت صديقتها في استحياء :

– لورا .. هل تعتقدين انه . إنني يحسن أن ؟

لم تكمل الجملة ، ولكن لورا فهمت واجابت في الحال :

– فيما يتعلق بالزواج فإنه لا مجال لكلمة (يحسن) ، فالزواج المتعب

افضل من الوحده ، مسكين جرانت هذا . أنا لا اعطف عليه ، ولكني فقط اعتقد ان رجـــلا يعرض الزواج على امرأه مرارا وتكرارا ، ثم يستمر في اخلاصه لها ، هو رجل يحب القضايا الخاسره ..

من المؤكد انه كان يسعد كثيرا لو انه شارك في معركة (دنكرك) ولكن .. مـــا يناسبه حقا ، هو الاشتراك في (هجوم فرقة الخيالة الخفيفة) ؟

ما اكثر حبنا في انجلترا لهزائمنا وخسائرنا .. وما اشد خجلنا من انتصاراتنا ؟

الفصل الثاني

الوصيفة

- ١ -

عادت آن إلى منزلها لتجد وصيفتها المخلصة أديث في حالة سخط وتذمر . .

قالت لها أديث وهي تطل برأسها من المطبخ :

- لقد أعددت لك شريحة ممتازة من اللحم للغذاء ، وحلوى كريم كراميل أيضاً .

أجابتها آن :

- اسفة جداً يا أديث ، لقد تناولت غذائي مع لورا ، ولكني أخبرتك بالتليفون إني لن أحضر للغذاء .

- كان ذلك بعد أن أعددت شريحة اللحم والكريم كراميل !

كانت أديث امرأة مديدة القامة ، ذات وجه متجهم ، وفم متذمر على الدوام ، ولكنها كانت ذات قلب من ذهب ، وكانت تحب آن وسارة حباً لا مثيل له ..

قالت تؤنب آن :

– ليس من عادتك أن تتفقدي فجأة خارج المنزل .. سارة هي التي تفعل مثل هذه الأشياء لا أنت .. هل تعلمين إني وجدت القفاز الذي قلبت الدنيا بحثاً عنه قبل سفرها ؟ وجدته محشوراً خلف وسادة الكنبة ؟

قالت آن وهي تتناول القفاز الحريري الجميل :

– وأأسفاه .. على العموم لقد سافرت سارة !

– لا شك إنها كانت سعيدة جداً بهذه الرحلة .

– طبعاً .. هي ورفيقاتها في المدرسة ، الجميع كن سعداء ..

– لا أظن إنها سوف تكون سعيدة في رحلة العودة .. هذا إذا لم تعد على نقالة ؟

هتفت آن :

– رباه .. لا تقولي أشياء مثل هذه يا أديث ؟

هزت أديث كتفيها وقالت :

– ولكن جبال سويسرا خطرة جداً . إن المرء يكسر ذراعه أو ساقه أثناء تسلقه هذه الجبال ، ثم يضع العضو المكسور تحت الجبس ، وقد يصاب العضو بالغرغرينة بالرغم من الجبس ، ويكون الموت هو النتيجة المحتومة ، ذلك فضلا عن الرائحة البشعة التي تنبعث من تحت

الجبس ؟

ضحكت آن على الرغم منها وقالت :

- على كل حال دعينا نأمل ألا يحدث ذلك لسارة !

كانت آن متعودة على تنبؤات أديث المخيفة ، التي تجد فيهـا أديث متعة غريبة .

قالت أديث وهي تتنهد :

- لن يكون المنزل هو نفس المنزل بدون سارة .. لن نتعرف على أنفسنا لشدة الهدوء .

- على كل حال سوف تجدين شيئاً من الراحة ؟

صاحت أديث في كبرياء :

- الراحة ؟ وما حاجتي إلى الراحة ، إنني أفضل أن أبلى من التعب على أن اصدأ من الراحة .. هذا ما تعلمته من أمي يرحمها الله ، وهذا مـا أخذت به نفسي طوال حياتي .. إنني سوف انتهز فرصة سفر ابنتك وأقوم بعملية تنظيف المنزل .. هذا المنزل محتـاج لتنظيف شامـل ا.

.. لا أشاطرك هذا الرأي ، يا عزيزتي أديث .. فـالمنزل نظيف تمامـاً ..

.. هذا ما تحسبينه انت ، ولكني أعرف اكثر منك ! إني اعرف ان جميع الستائر تحتاج إلى غسل وتنظيف ، وإن جميع ازرار الكهرباء تحتاج إلى تلميع . أوه .. هناك الف شيء وشيء يحتاج إلى تنظيف في هذا المنزل ؟

قالت اديث هذا وعيناها تلمعان سروراً بالتعب المرتقب .

قالت لها آن :

ـ استعيني بواحدة تساعدك !

ولكن أديث صاحت بصوت ارتجت له الجدران :

ـ أنا ؟ أنا استعين بواحدة في عملي ؟ أنا لا آمن أي امرأة غريبة تدخل هنا .. هناك اشياء ثمينة في هذا المنزل تحتاج إلى عناية حقيقية ، ولولا انشغالي الدائم في المطبخ لأشرفت على العناية بها قبل سفر ابنتك ، ولكن ها قد جاءت الفرصة ؟

ـ أنت تطبخين ببراعة يا عزيزتي ، وانت تعرفين ذلك ايضاً !

ارتسمت على وجه اديث المتجهم ابتسامة خيلاء رغماً عنها حاولت اخفاءها بالتقطيب ، قالت :

ـ آه الطهي .. لا براعة هناك في الواقع .. أنا لا أسمي الطهي عملا ..

وبهذه الجملة الختامية استدارت إلى المطبخ ، ولكنها سألت سيدتها قبل ان تختفي :

ـ متى تريدين أن تتناولي الشاي ؟

ـ أوه .. ليس الآن .. بعد نصف ساعة .

قالت أديث :

ـ إذاً يحسن بك ان تخلعي حذاءك وتـأخذي غفوة قصيره قبل الشاي ، فتشعرين بنشاط في المساء ، إن سفر ابنتك فرصة لك ايضاً ، هيا سيري أمامي ؟

سارت آن وخلفها اديث حتى وصلت إلى غرفة الاستقبال ، وتمددت على كنبة وثيره ، وخلعت لها اديث حذاءها ، ووضعت وسادة ناعمة تحت رأسها ..

قالت ان :

– إنك تعامليلني كأنني طفلة يا عزيزتي !

– لقد كنت طفلة صغيرة عندما استخدمتني والدتك لأول مره ، ولا اعتقد أنك تغيرت كثيراً .. على فكره ، فقد طلبك الكولونيل جيمس جرانت بالتليفون ليذكرك بأن موعدك معه هو الثامنة مساء في مطعم (موجادرو) ، وقد قلت له أنك تذكرين الموعد جيداً ، ولكن هذا طبع الرجال على اي حال .

– إنه شيء لطيف من جيمس ، ان يحاول التسرية عني هذا المساء .

قالت الوصيفة في امتعاض :

– لا اعتراض عندي على الكولونيل ، قد يكون مزعجاً ووقاراً ، ولكنه رجل مهذب (جنتلمان) .

ثم توقفت لحظة واضافت :

– على العموم . قد تقعين فيمن هو اسوأ من الكولونيل جرانت بكثير !

هتفت آن :

– ماذا قلت يا اديث ؟

ولكن الوصيفة واجهتها بعين لا تطرف ..

قالت انه يوجد من هو اسوأ بكثير من الكولونيل جرانت .

أوه . اعتقد إننا لن نرى مستر جيري كثيرا ، حيث ان ساره ليست في المنزل ؟

قالت آن :

– انت لا تحبين جيري يا اديث ، اليس كذلك ؟

– نعم ولا .. انه حقاً شاب جذاب ، وهذا شيء لا يمكن انكاره ، ولكنه ليس شاباً جاداً .. فقد تزوجت اختي مساراين رجلاً من هذا النوع ، إنه لا يستقر في وظيفة واحدة اكثر من ستة اشهر ، ودائماً يلقي باللوم على الغير ؟

ثم خرجت الوصيفة من الحجرة واكاليل الغار فوق رأسها ، اما آن فإنها اغمضت عينيها واسترخت لتستريح قليلاً !

جاءت من بعيد اصوات عربات الترام ، وكلاكسات السيارات في الشارع ، ولكنها كانت خافتة كأنها موسيقى ناعمة ، وعلى المائدة القريبة منها إناء به باقة من الورد تنبعث منها رائحة ذكية تملأ الجو بالنعومة والدعة .

وشعرت بالسلام والهدوء يحيطان بها ، سوف تفتقد ابنتها كثيراً ، ولكنه أيضاً شيء ممتع ان تنفرد بنفسها بعض الوقت .

ما اغرب ذلك الرعب الذي اجتاحها هذا الصباح .

وتساءلت عند ذلك عن نوع السهرة التي سوف تقضيها مع صديقها القديم كولونيل جيمس جرانت .

وسرعان ما راحت في سبات عميق .

- ٣ -

كان مطعم (موجادور) من المطاعم القليلة التي لا زالت تحتفظ بطابع الأيام الخالية ، وتتميز بالأطعمة الممتازة والخمور الممتعة ، وتوحي لروادها بذلك الجو الوديع من التأني والموسيقى الهادئة .

وصلت آن إلى المطعم لتجد الكولونيل جالساً ينتظرها في بار المطعم وعلى ملامحه دلائل القلق واللهفة ..

اسرع يحييها في سرور صادق ، ويتأمل باعجاب ثوبها الأسود المحتشم وعقد اللؤلؤ الذي يحيط برقبتها ، قال :

- آن .. ها قد وصلت ، من البديع حقـاً ان تكون المرأة جميلة ومواظبة على المواعيد ايضاً !

ابتسمت واجابت :

- لقد تأخرت ثلاث دقائق فقط لا أكثر ؟

كان الكولونيل جرانت رجلاً طويل القـامة متناسق الأعضاء ، وله حركات رجال الجيش المنتظمة ، ويكلل رأسه شعر رمادي حليق .. نظر إلى ساعته وقال :

- لماذا لم يحضر الباقون حتى الآن ؟ إن مائدتنـــا سوف تكون جاهزة في الثامنة والنصف ، ولكن دعينا نتناول مشروباً أولاً .. ماذا

تشربين ؟ شيري ؟ انك تفضلينه عن الكوكتيل ، اليس كذلك ؟

– نعم .. من هم الباقون ؟

– آل سينجهام ، هل تعرفينهم ؟

– طبعاً !

– وايضاً جينيفر جرام ، انها ابنة عمي ، ولا ادري مـا اذا كنت قد قابلتها من قبل أم لا ؟

– لقد قابلتها مرة معك !

– وهناك ايضاً ريتشارد كولدفيلد .. فقد قـابلته مصادفة بالأمس ، بعد فراق دام سنوات ، فقد أمضى معظم سنوات عمره في بورما ، وهو يشعر الآن بغربة لوجوده في انجلترا بعد كل هذه السنوات ؟

– نعم .. اعتقد اني افهم شعوره .

– انه شخص لطيف ، وقد مر بمأساة قاسية في المـــاضي ، فقد توفيت زوجته وهي تضع مولودهـا الأول .. كان يعبدها ولم يستطع البقـــاء في انجلترا بدونها .. ولم يستطع ان ينساهـا ، ولذلك ذهب الى بورما .

– وماذا جرى للطفل ؟

– مات أثناء ولادته !

اجابت ان في أسف :

– يا لها من مأساة ؟

– اه .. ها قد اقبل آل ماسينجهام ..

كانت مسز ماسينجهام امرأة جـافة العود ، وكانت بشرتها مليئـة

بالبثور التي اكتسبتها أثناء وجودها في الهند .

وكان مستر ماسينجهام رجلا قصير القامة ، لا يكاد المرء يشعر بوجوده إلا إذا تكلم .

قالت مسز ماسينجهام وهي تصافح آن بحرارة :

— ما أسعدني برؤيتك من جديد يا عزيزتي .. ما أبدع فستانك .. أعتقد إنني أسيء دائماً اختيار الفساتين التي أرتديهـــا في المساء .. وهذا هو رأي جميع أصدقائي أيضاً .. ولكني اعتقد أن الحيـــاة عمومـــاً اصبحت كئيبة وخالية من البهجة .. في الحقيقـة ، لا أظن إنني وزوجي سوف نبقى في انجلترا إننـــا نفكر في الرحيل إلى كينيا ؟

وأضاف مستر ماسينجهام :

— كثيرون جداً يفكرون في الهجرة خارج انجلترا ، والحكومة هي السبب !

قال كولونيل جرانت :

— ها هي جنيفر قد حضرت ومعها كولدفيلد

كانت جنيفر في الخامسة والثلاثين من عمرها ، لها وجه مثل وجه الحصان ، ومن عادتها أن تضحك بصوت يشبه الصهيل ..

أما ريتشارد كولدفيلد ، فقد كان رجلاً في منتصف العمر ، وله بشرة لوحتها الشمس ..

جلس الجميع حول مائدة في البـــار .. وجاءت جلسة آن بجوار ريتشارد كولدفيلد ..

وشرعت آن من باب اللياقة تجاذبه الحديث ..

هل مضى عليه وقت طويل في انجلترا ؟

ما هو رأيه في انجلترا بعد غيبته الطويلة عنها ؟

وأجابها بأن الأمر كان صعباً في البداية ، وأن كل شيء قد تغير عما كان يعرفه عليه قبل الحرب .. ثم أضاف بأنه يبحث عن وظيفـة ، وإن كان العثور على وظيفة ليس سهلاً بالنسبة لرجل في سنه .

قالت آن :

– هذا شيء مزعج ، وهذا خطأ أيضاً ؟

ابتسم ريتشارد وقال :

– إني لم أبلغ الخمسين بعد ، وعندي ثروة لا بأس بها ، وإذا لم أوفق إلى وظيفة فإنني قد اشتري مزرعة في الريف وأعمل في زراعة الخضروات وتجارة الدواجن ؟

صاحت آن :

– كل شيء إلا الدواجن .. عندي أصدقاء كثيرون جربوا الدواجن ثم انصرفوا عنها ، يبدو أن الدواجن تتعرض للأمراض دائماً .

– لعلني إذاً اكتفي بزراعة الخضروات ، لن اكسب منها كثيراً ، وإنما سوف أقضي حياة سعيدة !

– الحقيقـة أنه من الصعب أن يعرف الانسان مـــاذا يريد من هذه الحياة ؟

– هذا لا يزعجني البتة ، إني أعرف أنه ما دام الرجل يمتلك الثقة

في نفسه والارادة ، فإن المشاكل تذوب أمام عزيمته ..

قالت آن وهي غير مقتنعة :

- من يدري ؟

قال في حرارة :

- أؤكد لك ما أقول .. اني اكره ذاك النوع من الناس الذي يمضي عمره شاكياً باكياً ، ملوحاً أمام الدنيا كلها بسوء حظه في الحياة .

قالت ان وقد شاركته حماسه :

- أوه . في هذا أوافقك ..

رفع حاجبيه دهشة من حماسها المفاجيء ، ثم قال :

- يبدو أن لك تجربة مماثلة !

تنهدت وأجابت :

- طبعاً .. إني أعرف شاباً من هذا النوع .. انـه صديق لابنتي ، وهو لا يحدثنا عن شيء إلا عن فشله في الحياة .. في البداية كنت أعطف عليه ، وأخيراً امتــلأت منه مللا وضجراً ، وصرت أعير شكواه أذاناً صماء ؟

هتفت المسز ماسينجهام عبر المائده :

- ان الشكوى من سوء الحظ شيء ممل كثيراً .

سألها كولونيل جرانت :

- من تقصدين بكلامك هـذا ؟ جيرالد ليولد ؟ انه لن ينجح في شيء قط ؟

قال ريتشارد كرلدفيلد في هدوء :

– اذن فلك ابنة ، ولا بد أنها شابة ما دام لها صديق شاب .

قالت آن بتمهل :

– أوه .. نعم .. ابنتي في التاسعة عشر ..

– هل تحبينها كثيراً ؟

– طبعاً !!

ارتسمت على وجهه علامات ألم .. وتذكرت آن مأساته التي حدثها عنها كولونيل جرانت .. شعرت بأنه رجل وحيد في هذه الدنيا .

قال لها بصوت منخفض :

– من يراك لا يتصور ان شابة مثلك لها ابنة شابة .

ضحكت وقالت :

– هذه هي المجـــاملة المعهودة التي يقولها الناس لامرأة في مثل سني ؟.

– ربما ، ولكنني عنيت ما قلت .. هل زوجك ؟

تردد لحظة ، ثم قال :

– نسيت ؟

– نعم .. توفي منذ عهد بعيد !

– لماذا لم تتزوجي بعده ؟

كان سؤالاً خاليا من الكياسة ، ولكن الاهتمام الصادق البـــادي على وجهه ، جعلها تشعر بأنه شخص بسيط ، وأنه حقا يريد أن يعرف السبب .. أجابت :

- أوه .. ذلك بسبب ..

ثم توقفت لحظة ، ثم عاودت الحديث في حراره واخلاص :

- لقد كنت أحب زوجي حبا عظيما ، وعندما مات لم أحب احداً بعده قط .. وهناك ابنتي ايضا .

قال كولدفيلد :

- نعم .. هذا حقا ما يحدث مع امرأة من طرازك .

نهض كولونيل جرانت واقترح على الجميع أن ينتقلوا إلى صالة الطعام ..

وجاءت جلسة آن هذه المرة بين كولونيل جرانت وبين مستر ماسينجهام ولم تتح لها فرصة حديث جديد مع ريتشارد كولدفيلد الذي انخرط في حديث مع جنيفر غراهام ..

همس كولونيل جرانت لآن :

- أعتقد ان كولدفيلد وجينيفر يصلحان زوجا وزوجة ، انه يحتاج الى زوجة كما تعرفين ؟

ورغما عنها شعرت آن ان هذه الفكره تضايقها .

جينيفر جراهم التي تشبه الحصان ، وتتحدث بصوت كالرعد لا تصلح قط زوجة لشخص مثل ريتشارد كولدفيلد ؟

ولكنها اخفت ضيقها متظاهرة بانهماكها في تناول طعامها ..

سألها جرانت :

- هل سافرت ابنتك هذا الصباح ؟

— نعم يا جيمس .. وأرجو ان تتمتع بوقت سعيد فوق ثلوج سويسرا !

— انا واثق انها سوف تقضي وقتا رائعا .. على فكرة هل صحبها ذلك الشاب جيرالد ليولد في الرحلة ؟

— لا .. فقد ذهب الى مزرعة عمه !

— حمداً لله .. لقد كانت براعة منك يا آن ان تباعدي بينهما !

— ليس ذلك شيئا سهلا دائما .

— على كل حال لن تراه لمدة ثلاثة اسابيع ، فدعينا نأمل ان تتعلق بشاب غيره اثناء الرحلة ؟

قالت آن :

— ان ابنتي ما تزال صغيرة جداً يا جيمس ، ولا اعتقد ان علاقتها مع جيري ليولد كانت علاقة جادة على اي حال .

قال جرانت :

— جائز .. ولكنها كانت مهتمة به جدا طول الوقت .

ابتسمت في حنان وقالت :

— هذه هي طبيعة ابنتي العزيزة .. انهـــا تهتم بكل من تحب .. تتصور انها تعرض الصالح لأصدقائها خيرا منهم ، وتفرض عليهم ان يقوموا به .

— انها طفلة ظريفة حقا ، وجميلة ايضا ، ولكنها لن تكون قط جميلة مثلك يا آن ، ولا وديعة مثلك .. انها من الجيل الجديد .. الجيـل الصلب .

قالت آن وهي تبتسم :

– لا أعتقد ان سارة صلبة جدا مثل باقي افراد جيلها !

– كم اتمنى لو ان فتيات هذا الجيل حاولن ان يتعلمن شيئا من جاذبية أمهاتهن ..

كان جرانت ينظر اليها في شغف ، وفكرت في نفسها :

– جيمس العزيز .. كم هو لطيف معي .. انـه يتصور اني امرأة مثالية .. هل انا حمقاء اذ يتصور اني امرأه مثالية ..

هل انا حمقاء اذ ارفض عرضه للزواج ؟ ارفض ذلك الحب والتقدير والشغف ؟

وفجأة وقع ما يعترض سير هذه المشاعر الرقيقة ..

بدأ الكولونيل يقص حكاية زوجة المهراجا ، الذي كان صديقا له في الهند .

قصة سمعتها ثلاث مرات من قبل !

تبددت المشاعر الرقيقة وانصرفت خواطرها عن الكولونيل وانشغلت بتأمل ريتشارد كولدفيلد ..

انه يبدو واثقا من نفسه اكثر مما ينبغي ، ام ان هذه الثقة هي سلاحه في مواجهة عالم غريب عنه ؟

كان وجهه وجها حزينا حقا – وجها وحيداً !

ولكن له بعض المزايا ايضا .. انه يبدو عطوفا امينا صادقا نزيها ، عنيداً ربما ومتعصبا احيانا ، ولكن في نفس الوقت تزدهر خلاله الطيبة

اذا رواها الحب الصادق ..

وقطع عليها خواطرها صوت الكولونيل غرانت وهو يصيح :

— وهـل تصدقون السبب .. لقد كان السائس يعرف الحقيقة من البداية ..

عادت آن الى اللحظة الحاضرة فيما يشبه الصدمة وشاركت السامعين في الضحك المناسب لقصة زوجة المهراجا الهندي ؟

الفصل الثالث

الحلم

- ١ -

ففتحت آن عينيها في الصباح التالي وللوهلة الأولى لم تعرف أين هي .. هذه النافذة كان يجب ان تكون ناحية اليمين لا ناحية اليسار ، والباب ايضا ليس في مكانه ، ودولاب الملابس .. كل شيء ليس في مكانه المعتاد .. لماذا ؟

وعند ذلك تنبهت حواسها وأدركت أنها كانت تحلم .. كانت تحلم بأنها عادت شابة صغيرة في منزل أسرتها في أبيلستريم ..

لقد عادت إلى المنزل وهي في حالة شديدة من الانفعال ، فقابلتها أمها وقابلتها أديث (الشابة) . فقد دارت حول المنزل تتفقد الحديقة ،

وتتأمل الزهور ، ثم دخلت المنزل .

كان كل شيء كعهدها به ، الصالة خافتة الضوء ، وحجرة الاستقبال الملحقة بها ..

وعند ذلك فاجأتها أمها بأن قالت :

– سوف نشرب الشاي هنا اليوم ..

ثم قادتها من يدها إلى غرفة لم ترها من قبل .. غرفة أنيقة وضيئة مليئة بالزهور والستائر ، ذات الألوان الجذابة !

ثم قال لها صوت :

– لم تكوني تعلمين من قبل بوجود هذه الحجرات .. أليس كذلك ؟ فقد وجدناها في العام الماضي ..

ورأت حقاً حجرات كثيرة جديدة ، وسلالم مؤدية إلى حجرات أكثر في الدور الأعلى ، كان شيئاً رائعاً ومثيراً .

وحتى بعد استيقاظها كانت آن لا تزال تحت تأثير ذلك الحلم .

كانت آن (الشابة) التي تواجه الحياة بقلب الفتاة ذات الخمسة عشر ربيعاً ، هذه الحجرات المجهولة .. تصور أنها لم تعرف بوجودها طيلة هذه السنوات .. متى تم العثور عليها ؟ حديثاً ؟ أم منذ سنوات ؟

وشيئاً فشيئاً بدأت اليقظة تبدد تأثير ذلك الحلم وتمحو ذكرياته .

لقد كان حلماً سعيداً ، ولكنه ترك في نفسها الآن ما يشبه اللوعة والأسى .. الانسان لا يمكن أن يعود إلى الماضي ، ولكن مـا أغرب تأثير ذلك الحلم عن منزل به حجرات مجهولة ..

فقد شعرت آن بحزن حقيقي ، لأن هـذه الحجرات لم تكن قط شيئا واقعيا !

ظلت آن مستلقية في فراشها وهي تراقب الضوء المتسرب من ستائر النافذة وهو يزداد وضوحا .. لا بد أن الوقت متأخر ، التاسعة صباحا على الأقل . إن الصباح الباكر ليس له ذلك الضوء القوي في انجلترا ، أما سارة فإنها سوف تستيقظ في سويسرا كي تطالع الشمس الساطعة والثلوج البيضاء !

سارة .. من الغريب ان آن لا تشعر بها بوضوح الآن .. إنها في مكان بعيد .. في مكان غير واضح .

أمـا الذي كان واقعيا ، فهو ذلك المنزل في أبيلستريم ، والحجرات المجهولة ، والزهور والستائر الجميلة و .. أمهـــا ! واديث ايضا تقف في خشوع ، ووجهها لا يزال شابا ، لم ترسم عليه بعد علامات التجهم والتذمر .

ابتسمت آن ثم نادت :

– أديث !

دخلت أديث الحجرة وأزاحت الستائر ثم قالت :

– حسنا .. لقد نمت جيداً هذه الليلة ، لم يكن في نيتي إيقاظك ، إنه ليس يوما جميلا على اي حال ، هناك ضباب في الأفق .

كانت السماء خلف النافذة تبدو رمادية مكفهرة ، ولكن احساسها بالسعادة والدعة لم يتأثر ، ظلت مستلقية وهي تبتسم .

قالت اديث :

– افطارك جاهز ، سوف احضره لك ؟

ثم نظرت إلى سيدتها وقالت :

– انت تبدين سعيدة هـــذا الصباح ، لا بد انك امضيت سهرة جميلة بالأمس !

قالت آن في دهشة :

– بالأمس ؟ أوه .. نعم كانت سهرة بديعة جدا ، اسمعي يا أديث ، هل تعلمين اني رأيت نفسي في المنام في منزلنا القديم ؟ ورأيتك أيضا وكان الوقت صيفا ، وكان في المنزل حجرات جديدة لم ارها من قبل !

– الحمد لله اني لم ارها ايضا ، فقد كان بالمنزل من الحجرات ما يكفي ، ذلك المطبخ الشاسع .. رباه كلما تذكرت تلك الكميات من الفحم التي كنا نستعملها ، من حسن الحظ أن الفحم كان رخيصا عندئذ !

– لقد كنت ما تزالين شابة يا اديث ، وأنا ايضا .

قلبت الوصيفة شفتيها امتعاضا وقالت :

– نحن لا نستطيع أن نعود بالزمن الى وراء اليس كذلك ؟ فقد مات ذلك الماضي وقبر واندثر .

قالت آن في نعومة :

– نعم ، مات وقبر واندثر ؟

– على العموم فأنا لست حزينة لانقضاء الشباب ، ليس عندي مـا أشكو منه ، صحتي جيدة وقوتي ممتازة ، ولو انهم يقولون ان خريف العمر ، هو الفترة التي تبدأ الأمراض فيها تهاجم الانسان من الداخل .

– انا واثقة انك مريضة بأي مرض يا اديث .

- وما ادراك ؟ هذا شيء لا تعرفينه إلا بعد ان تسقطي صريعة المرض ، ويحملونك الى المستشفى ويزقونك اربا اربا وعندئذ سوف تتأكدين أنك مريضة بعد فوات الأوان .

وبهذه الجملة (المتفائلة) غادرت الخادمة الحجرة .

وبعد دقائق عادت وهي تحمل الافطار قائلة :

- ما هو الافطار ، اعتدلي قليلا حتى أضع وسادة خلف ظهرك لتتمكني من الأكل في السرير ؟

قالت آن وهي تنفذ تعليمات خادمتها المخلصة :

- ما أشد حنانك علي ..

احمر وجه الوصيفة المتجهم وتمتمت :

- اني احب أن يكون كل شيء دقيقا ، هذا كل ما هنالك ، وعلى العموم فأنت محتاجة دائما لمن يرعى شؤونك .. فأنت لست سيدة صلبة العود .. لست مثل صديقتك لورا التي لا يقوى البابا نفسه على الوقوف في وجهها ؟

قالت آن وهي تحتسي قهوتها :

- ان لورا شخصية عظيمة ..

- اعرف ذلك .. فقد سمعتها كثيرا تتحدث في الراديو ، ان صوتها وحده يدل على انها امرأة عظيمة .. ومظهرها ايضا .. وقد سمعت ايضا انها نجحت في أن تعثر على زوج في وقت ما ، كيف انفصلا ؟ هل كان السبب هو الموت ام الطلاق ؟

- الموت .. فقد مات زوجها !

ـ ذلك من حسن حظه ، وايم الحق .. انها ليست من النوع الذي يجرؤ اي رجل على ان يحيا معهـا مدى الحياة .. ولو ان هناك رجـالاً يحبون أن تكون زوجاتهم من المسيطرات على شؤون حياتهم ..

ثم اتجهت نحو الباب وهي تقول :

ـ والآن تناولي افطارك على مهل وتمتعي بالكسل والاسترخـاء في السرير وحلقي مع افكارك السعيدة في هذه العطلة ؟

* * *

ابتسمت وتمتمت لنفسها :

ـ عطلة ؟ هل هذا ما تطلقه عليها اديث ؟ ومع ذلك فإن هذا كان شعورها بشكل ما .. اثناء وجود ابنتها كان هناك دائما قلق ما يسيطر على عقلها الباطن .. كانت تجد نفسها امام عشرات الأسئلة : « هل ابنتها سعيده ؟ » ، « هل يحبها أصدقاؤها ؟ » ، « هل ضايقهـا احد في سهره الأمس ؟ »

انها لم تتدخل قط في شؤون ابنتها ، لم تكن ابنتها لتسمح بذلك على أي حال .. لم توجه أي اسئلة .. كانت تؤمن بأن ابنتها يجب ان تتعلم كل شيء بنفسها .. ولكن حبها كان يحيطهـا دائما بذلك القلق عليهـا ..

وكان عليها أيضا ان تكون في حالة استعداد في اي لحظة تقصدها

فيها ابنتها طلباً لمساعدتها الأدبية والنفسية .

كانت تحدث نفسها أحياناً : يجب أن اتوقع أن يحدث مكروه لابنتي ، ولكني لن أتدخل إلا إذا شعرت بأنها في حاجة الي .. لن أشعر قط بسيطرتي أو بتدخلي في شؤونها .

ثم حدث المكروه .. ذلك الشاب المزعج جيري ليولد الذي نجح في أن يحظى بكل اهتمام ابنتها .

عبثاً حاولت أن تفصل بينهما .. والآن .. ها هي ابنتها بعيدة عن ذلك الكابوس الحي .. ومن المؤكد أنها ستقابل شباناً افضل منه الف مرة ..

وما دامت ابنتها في سويسرا ، فإنها تستطيع أن تطرد من ذهنها كل هذه الأفكار المتشائمة التي مصدرها جيري ليولد .. تستطيع أن تتمرغ تحت هذه الأغطية الحريرية ، وتفكر فيما تفعله اليوم !

فقد سعدت حقا بسهرة الأمس ..

جيمس غرانت العزيز ... ما الطفه بالرغم من قصصه المملة .. يا لها من قصص تافهة سخيفة ..

يجب على الشخص عندما يبلغ الخامسة والأربعين من عمره ان يكف عن إلقاء هذه القصص السخيفة .. ألا يشعر المسكين بالضجر يجتاح سامعيه عندما يبدأ كلامه : « ألم اخبركم بهذه القصة الغريبة التي حدثت لي ؟ » ، وهكذا وهكذا !

ومن الممكن جداً أن يرد احد سامعيه بل أخبرتنا بها من قبل يا جيمس ثلاث مرات على الأقل !

من المؤكد أن جيمس سوف يخجل عند ذلك . لا ، قسوة .. لا يجب أن يواجهه أحد بمثل هذا الرد ؟

وذلك الشخص الآخر رينشارد كولدفيلد ، إنــه أصغر من جيمس ، ولكن امله (مع تقدم العمر) ، يكتسب ايضاً تلك المادة المقيتة في القاء قصص لا تنتهي .

ولكن آن لم تتصور .أن كولدفيلد قد يصبح مثل غرانت ، إنه قد يتطور إلى انسان انطوائي ، انسان مليء بالمرارة والتعصب ، قد يتصرف تصرفات غير معقولة احياناً ، ولكنه عموماً شخص لطيف ، انه شخص وحيد .. وحيد جداً .. انه ضائع بمفرده في تلك الغـابة الهائلة التي اسمها لندن .

ترى اي وظيفة سوف يحصل عليها ؟

ليس من السهل الحصول على وظيفة هذه الأيام .. لعله سينتهي إلى شراء تلك المزرعة في الريف ، وإلى الاتجار في الخضراوات .

ترى هل ستقابله مرة ثانية ؟ هل تدعو جيمس الى العشاء يوماً ، ثم تلمح له أن يدعو كولدفيلد ؟

انها تشعر بأن ذلك سوف يخفف من شعوره بالوحدة ، ما افظع هذه الضوضاء التي تحدثها أديث .. كأنها جيش كامل يجلو بكل معداته من ميدان القتال ، ومع ذلك فإن هذه الضوضاء المخيفة هي الدليل على ان اديث في اقصى حالات النشوة .

بعد لحظات فتحت اديث الباب ودخلت ورأسهـا معصوب بمنديل ، وعلى وجهها تلك العلامات التي تكون على وجه كاهنة تقوم بطقوس

وثنية خفيفة قائلة :

— اتتناولي طعامك في الخارج ، اليس كذلك ؟ فقد أخطأت بخصوص الضباب ، إنه يوم مشمس ، وإذا أحببت فإنك تستطيعين الخروج والتنزه وتناول الغذاء في مطعم ، وسوف انتهز أنا هذه الفرصة للقيام بتنظيف شامل المنزل .

ضحكت آن وقالت :

— حسناً يا اديث ، سوف اخرج ، ولكن ارجوك الا تقتلي نفسك من شدة العمل ، ولِمَ لا تستعينين بامرأة أخرى ؟ مسز جوبر مثلا .

— مسز جوبر ؟ هل تظنين إنني أسمح لها بالدخول هنا مرة أخرى ؟ هل تظنين بأني أترك تلك المرأة الخاملة تنظف الفضيات والزجـــاج والأدوات المعدنية ، والآن استعدي للخروج لأنني أريد أن ابدأ بتنفيض السجاجيد . .

— هـل أستطيع ان اعود في المساء ، أم تفضلين أن أقضي الليلة في فندق ؟

ولكن أديث لم تضحك ، وقالت :

- لا مزاح من فضلك . . على فكرة هذه الطاسة التي اشتريتهـا لي بالأمس ليست جيدة . . إنها كبيرة ويصعب تقليب أي شيء فيها ، أنا أريد طاسة مثل القديمة .

- ولكنهم كفوا عن انتاج ذلك النوع . .

ردت اديث في ازدراء :

- هذه الحكومة . . إلى أين يريدون ان يصلوا بنا ، على العموم لا

تنسي شراء طقم (السوفليه) الصيني .

— أعتقد اني سوف اعثر عليه .

— هذا شيء يشغل وقتك على أي حال !

— من يسمعك تحدثينني هكذا يا أديث يتصور انني طفلة صغيرة ، وانك تلهينني بلعبة أو بنزهة ؟

ابتسم وجه الوصيفة المتجهم وقالت :

— لعل السر انك في غياب ابنتك تبدين أصغر بكثير ، وعلى العموم فسوف أحدثك بالطريقة التي تعجبك ؟

واعتدلت في وقفتها وقالت بلهجة احترام :

— إذا وجدت نفسك يا سيدتي قريبة من (مخازن الجيش والأسطول) فأرجو أن ..

— حسناً .. سأحضر لك طقم (السوفلية) .

انسحبت الخادمة من الغرفة لتبدأ هجومها المرتقب على الأثاث والسجاجيد وشرعت آن تستعد للخروج .. وسرعان ما ترامى اليها صوت الوصيفة وهي تغني في صوت أشبه بالولولة والنحيب .

أين من عيني هاتيك الدماء
تملأ الدنيا بآلام البلاء
وسماء اختفى منها الضياء
طار فيها الجن ومصاصو الدماء !

أخذت آن تمشي الهوينا في (مخازن الجيش والأسطول) ، وهي تتطلع إلى مئات الأصناف من الصحاف الصينية والأدوات المعدنية . لم تكن كل الأصناف للبيع ، كان بعضها (معد للتصدير) ، وكانت هذه الأصناف أجمل الف مرة من الأصناف المعروضة للبيع ..

ولكن احساسها بالحرمان من هذه الأدوات الجميلة ، لم يمنعها من الاعجاب بقدرة الصانع على انتاج هذه الأدوات البالغة حد الروعة من الجمال والاتقان ..

وعثرت آن أثناء تجوالها على طقم صيفي جميل للسوفلية ، وكان آخر واحد من نوعه ، فاشترته في الحال ..

وفي نفس اللحظة صاحت امرأة :

ــ سوف أشتري هذا الطقم .

ولكن البائعة أجابت :

ــ آسفة يا سيدتي ، فقد بيع في التو ؟

ردت آن مجاملة المرأة :

ــ أنا آسفة جداً !

ثم سارت وهي سعيدة بتوفيقها في العثور على شيء سوف ترضى

هذه أديث !

حملت مشترياتها ، ثم دخلت إلى قسم (الأدوات الزراعية) ، كانت ترجو أن تعثر على بعض الأصص لغرفة الاستقبال .

كانت تتكلم مع البائع عندما جاءها صوت من خلفها يقول :

– صباح الخير يا مسز برنتيس .

استدارت لتجد ريتشارد كولدفيلد واقفاً ينظر اليها وعلى وجهه سرور كسرور الطفل !

احمر وجهها دون أن تشعر ، ولكنه بادرها قائلا :

– ما أجمل أن أقابلك صدفة هكذا .. لقد كنت افكر فيك لتوي ، فقد لمت نفسي لأني لم أسألك عنوانك ليلة الأمس ، ولم استأذنك في أن أزورك ، والواقع إن ما منعني من ذلك هو خوفي من أن تحسبيني متطفلا ، لا شك أن لك العديد من الأصدقاء .. و ...

قاطعته مسز برنتيس قائلة :

– سوف أكون سعيدة ... إذا زرتني .. أنا أيضاً كنت افكر في الاتصال بالكولونيل جرانت لأطلب منه أن يدعوك لزيارتي ..

هتف ريتشارد في ذهول :

– حقاً ؟ حقاً ؟

يا المسكين .. لا بد أنه يشعر بوحدة قاتلة .. وهذه الابتسامة السعيدة على وجهه البسيط تؤكد ذلك !

– لقد كنت اشتري بعض الأصص لحجرة الاستقبال .. ولكن مـاذا

تفعل أنت هنا ؟

— لقد كنت أتفحص اقفاص الدجاج .

— اما تزال تفكر في تربية الدواجن ؟

— لم أصل إلى قرار بعد .

سار الاثنان نحو باب الخروج ، وفجأة سألها كولدفيلد :

— ترى هل في امكاني أن أدعوك لتناول الغذاء معي ؟ هذا إذا كنت غير مرتبطة بوعد سابق طبعاً !

ضحكت ان وردت ببساطة :

— لست مرتبطة ويسعدني كثيراً ان أقبـل دعوتك ، والواقع إنني ممنوعة من العودة إلى منزلي طوال اليوم .

قال في دهشة :

— ممنوعة ؟

— نعم .. إن خادمتي تنظف المنزل اليوم بمناسبة فصل الربيع ، وقد منعتني منعاً باتاً من العودة قبل المساء ؟

قال في سذاجة :

- وكيف تسمحين لها أن تعاملك هكذا ؟

— اوه .. إن أديث خادمتي وصديقتي .. إنهـا معي منذ وقت كنت طفلة ..

— آه .. هكذا !

ولكنه في الحقيقة شعر بعطف على هذه المرأة الحسناء التي تتعرض لطغيان وديكتاتورية خادمتها .. يا لها من امرأة وديعة مسالمة قال :

– تنظيف بمناسبة فصل الربيع ، هل هذا هو الوقت الذي تنظف فيه المنازل عادة ؟

– لا .. ذلك يحدث عادة في شهر مارس ، ولكن نظراً لوجود ابنتي في سويسرا ، فإن اديث انتهزت الفرصة كي تنظف المنزل .

– هل تفتقدين ابنتك ؟

– طبعاً .. طبعاً !

– اعتقد ان فتيات هذا الجيل لا يحرصن على البقاء في المنزل كثيراً انهن مغرمات بأن يفعلن كل شيء كما يحلو لهن !

– اعتقد ان هذه الموضة في سبيلها إلى الاختفاء على اي حال .

– الجو جميل اليوم ، اليس كذلك .. هل تحبين أن نتمشى عبر الحديقة ؟ ام ان ذلك يتعبك ؟

– لا يتعبني قط ، فقد كنت على وشك الادلاء بنفس الاقتراح !

عبر الاثنان شارع فيكتوريا ، ثم هبطا نفقا سارا فيه حتى خرجا إلى حديقة سانت جيمس .

نظر ريتشارد إلى تماثيل أبستين ثم قال :

– هل تجدين اي جمال في هذه التماثيل ؟ كيف يسمي بعض الناس هذه الأشياء البشعة فنا ؟

– اوه .. من المؤكد انها فن !

– هل تعنين انك معجبة بهذه التماثيل ؟

– لا .. انا ايضا احب الفن الكلاسيكي الذي يعرض الجسم الانساني في وضوح ووقار وجمال ، ولكن ذلك لا يعني ان ذوقي الخاص هو

الكلمة الأخيرة في الفن .. اعتقد انه يجب على الانسان ان يتعلم الا يرفض المقاييس الجديدة في الفن .. الفن الحديث له قيمه الحديثة ، مثله في ذلك مثل الموسيقى الحديثة !

صاح ريتشارد :

- الموسيقى الحديثة ؟ هل تسمين هذا الهوس موسيقى !

وقفت مس برنتيس في سيرها قائلة :

- مستر كولدفيلد ، ألا ترى أنك ضيق الأفق ..

نظر اليها بحدة ، فاحمر وجهها ، ولكنها استمرت تنظر اليه في ثبات .

- هل أنا ضيق الأفق حقاً ؟ ربما ولكن بالحقيقة إني أشعر بصدمة أمام كل شيء أراه فقد تغير كل شيء عما كان عليه قبل سفري إلى انجلترا .

ثم ابتسم وقال :

- إني أعتمد عليك في توجيهي وارشادي ؟

ردت برنتيس بسرعة :

- أوه . أخشى إني أيضاً « دقة قديمة » ، إن ابنتي تسخر من ارائي كثيراً ، ولكني أشعر أنه من الظلم ان يغلق الانسان عقله .. مع تقدمه في السن ، من ناحية ، لأنه سوف يصبح شخصاً مزعجاً للمحيطين به ، ومن ناحية أخرى ، لأنه قد يفقد الواناً من الجمال لا يعرفها .

سار ريتشارد بجوارها صامتا لحظة ثم قال :

- أنا لا أوافقك في حديثك عن نفسك على انك امرأة متقدمة في السن ، انت أصغر امرأة رأيتها منذ فترة طويلة ، بل أنت اصغر بكثير

من فتيات هذا الجيل الصاخبات ، هؤلاء الفتيات يخفنني .

لم ترد برنتيس بشيء ، كانت الشمس دافئة والجو بديعا ، وكانت تشعر بألفة عجيبة نحو هذا الشخص الغريب .

وقف الاثنان امام نافورة مياه وأخذا يرقبان الطيور المائية وهي تسبح في الماء بغبطة .

كان ريتشارد شخصا اليفا وديعا ، وتحدث الاثنان وضحكا ، وشعر كل منهما بأنه لا غنى له عن الآخر .

قال ريتشارد :

ـ بكل سرور !

ثم جلس الاثنان يتطلعان إلى النافورة وإلى الوان قوس قزح التي تتخلل رذاذ الماء .

قالت برنتيس :

ـ ما اجمل لندن ؟

ـ نعم .. المرء لا يكتشف ذلك إلا إذا ابتعد عن الزحام والناس وضجيج السيارات ، فقد كانت زوجتي تقول ان لندن هي المكان الوحيد الذي يظهر فيه الربيع في أبهى صورة له . كانت تقول ان الزهور والأشجار تبدو أكثر جمالاً عندما تكون خلفيتها هي المباني والعمارات بعكس الريف الذي يبدو فيه كل شيء خليطا من الخضرة والألوان .

ـ أعتقد انها كانت على صواب .. أنا اوافقها على وجهة نظرها !

قال ريتشارد ، دون ان ينظر إلى آن :

– لقد ماتت منذ زمن بعيد .

ردت بلطف :

– أعرف ذلك ، فقد اخبرني به الكولونيل جرانت !

استدار ريتشارد ونظر اليها متفحصا ، وسألها :

– هل أخبرك كيف ماتت ؟

ترددت مسز برنتيس لحظة ، ثم قالت :

– نعم .

تنهد ريتشارد وقال :

– لا أعتقد إني سوف أنسى ذلك قط .. انا اتصور دائما اني السبب في موتها !

ردت مسز برنتيس :

– انا أفهم شعورك ، ولو كنت مكانك لشعرت بنفس الشيء ، ولكنه شعور خطأ طبعا ، اليس كذلك ؟

– لا .. ليس شعور خطأ .

– إني احدثك من وجهة نظري كإمرأة .. كل امرأة تحب ان تحمل ، وان تلد مهما كانت الخطورة التي تتعرض لها .. كل امرأة تشعر بأنها لا تصبح كاملة إلا اذا صارت أمـا .. الم تكن زوجتك ترغب في الطفل ؟

– أوه .. نعم ، فقد كانت سعيدة بحملها كثيراً ، وانا ايضا .. كانت امرأة سليمة النية ، ولم يكن هنـاك مجال للتفكير في ان اي

شيء قد يحدث ؟

حلت فترة صمت .

قالت بعدها برنتيس باخلاص :

– انا اسفة من اعماقي !

قال ريتشارد :

– لقد حدث ذلك كله منذ زمن بعيد .

– لقد مات الطفل ايضا ، اليس كذلك ؟

– نعم .. الحق اني اكاد اشعر بالامتنان لوفاته .. لو انه عاش لكرهته .. كنت اتصور دائما ان امه دفعت حياتها ثمنا لحياته !

ردت مسز برنتيس :

– حدثني عن زوجتك !

شرع ريتشارد يخبرها عن زوجته ايلين ..

حدثها عن جمالها ومرحها ، ثم عن نوبات الصمت التي كانت تعاودها فجأة ..

ثم توقف ريتشارد عن الحديث وقال :

– اني لم اتحدث عن زوجتي الى احد من قبل .

– استمر .. لا تتوقف !

تنهد ريتشارد وعاد الى الحديث عن زوجته :

لقد كان كل شيء خاطفا .. تقابلا وتحابا وتزوجا وامضيا شهر العسل في فرنسا ، يتجولان بين ربوعها بالسيارة !

قال : لقد كانت دائما عصبية وهى في السياره .. كانت تتعلق بي كأنما تخشى ان تسقط من السياره ، وانا لا افهم الآن سر عصبيتها ، لأنها لم تتعرض من قبل لأي حادث ..

ولكن هذه الذكريات كانت تعاودني دائما وأنا في بورمــا ، كنت احس بلمس يديها تتشبثان بي وأنا أقود سيارتي في غابات بورمــــا .. كنت أشعر دائمــا .. بأنه (غير معقول) ، أن إيلين اختفت من الحياة ..

غير معقول .. نعم هذا هو الشعور ؟

هذا ما شعرت به برنتيس بعد وفـاة باتريك . غير معقول إنــه اختفى من الحياة .. لا بد أنه في مكان ما .

لا بد أنه قادر على أن يشعرها بوجوده بطريقة ما .. غير معقول أن يختفي ولا يترك شيئا .. ما أبشع ذلك الحاجز الغامض بين الأحياء والأموات .

كان ريتشارد ما يزال يتحدث عن حياته الأولى ، كان يصف المنزل الذي اختاره عشاً له ولزوجته وسط حديقة مليئة بأشجــــار الخوخ ، وشجيرات الليلاك .

قال ريتشارد في النهاية :

– لا أدري حقاً لماذا أخبرك بكل هذا !

ولكنه في الحقيقة كان يدري .. كان يشعر بأن صورة إيلــين الراحلة بدأت تضمحل في وجدانه لتظهر مكانها صورة الانسانة الوديعة الجميلة ..

صورة مسز برنتيس ؟؟

كان يشعر بأنه سوف يترك ذكرى إيلين بجوار هذه النافوره ، وهذه الطيور ، وهذه الأشجار ، وهذه الشمس الحانية .

وكان يشعر بأن هذه هي اخر مرة يعيدها فيها إلى الحيــــاة بحديثه عنها ..

لقد كان حديثه عنها إلى برنتيس هو (صلاة الوداع) لروح الزوجة الراحـــلة ..

ترك ريتشارد كل ذلك خلفه في الحديقة ، ثم سار مع آن يقتحمان شوارع لندن الصاخبة !

الفصل الرابع

الحب

– ١ –

هل مسز برنتيس موجودة ؟

سألت لورا ويتستابل هذا السؤال وهي تقف أمام باب المنزل ..

أجابتها أديث التي فتحت لها الباب :

– ليست موجودة الآن ، ولكني أعتقد إنها لن تغيب طويلاً ، هل تحبين أن تتفضلي بالدخول لانتظارهـــا ؟ أنا أعرف أنها سوف تسعد كثيراً برؤياك .

ثم تنحت اديث جانباً ، فدخلت لورا وهو تقول :

– سوف انتظرها ربع ساعة لا أكثر ، فقد مضت أيام كثيرة لم أرها فيها .

نظرت لورا حولها وقالت :

– أرى أنكم غيرتم أماكن الأثاث ، كان المكتب من قبل في هذا الركن ، وكانت الكنبة في مكان اخر .

ردت الوصيفة باحترام :

– لقد فكرت مسز برنتيس أن المكان يبدو أفضل بعد هذا التغيير ، بنفسها ، فقد فاجأتني بهذا التغيير قائلة : « أديث » ألا تعتقدين ان الغرفة تبدو أكثر جمالاً الآن ؟ واكثر اتساعاً ايضاً ؟ في الحقيقة لم أوافقها على رأيها ، ولكني لم أصرح لها بذلك حتى الآن كي لا احرج مشاعرها ، السيدات لهن نزوات أحياناً ، واكتفيت بأن قلت لها : يجب ألا ترهقي نفسك يا سيدتي حتى لا تصابي بانزلاق غضروفي أو كسور في ضلوعك وتندمين بعد فوات الأوان وتقضين بقية عمرك عاجزة عن الحركة . أنا اعرف ذلك جيداً ، لأن اخت زوجي اصيبت بانزلاق غضروفي وهي ترفع مزلاج النافذة ، ومن يومها وهي لم تغادر الفراش حتى الآن !

قالت لورا :

– بدون داع في الأغلب .. من حسن الحظ ان الأطباء لم يعودوا يصفون ملازمة الفراش علاجاً لكل مرض .

– إنهم حتى لا يتركون المرأة ترقد شهراً بعد ولادتها ، فقد الزموا ابنة أختي بمغادرة الفراش بعد ولادتها بخمسة أيام .

قالت لورا ضاحكة :

– إن جيلنا يا عزيزتي اكثر صلابة من نساء هذا الجيل .

– هذا حق يا سيدتي ، فقد تمرضت لأمراض كثيرة في طفولتي ، ولكني تغلبت عليها جميعاً .. كنت أصاب بنوبات أغماء ونوبات تشنج ، وفي الشتاء ، كان لوني يصبح ازرق تمـــاماً ، وكان الهواء يملأ قلبي ويصفر فيه .

ولكن لورا لم تهتم بتاريخ اديث الصحي ..

قالت مشيرة إلى اثاث الغرفة :

– اعتقد ان مسز برنتيس مصيبة في هذا التغيير ، من المؤسف أنها لم تقم به منذ زمن .

ردت الوصيفة بلهجة ذات مغزى :

– قليلاً قليلاً يبني العصفور عشه !

نظرت اليها لورا في دهشة قائلة :

– ماذا ؟ هل تعنين ؟

اومأت الوصيفة برأسها باسمة قائلة :

– نعم ..

– أوه ؟!

تبادلت المرأتان نظرة فهم ..

ثم سألت لورا :

– هل رأيت الكولونيل جرانت مؤخراً ؟

– لا ..

ثم اضافت بلهجة من يرثي ميتاً :

– كان رجلاً لطيفاً .

ومرة أخري قالت لورا :

- أوه ؟

قالت الوصيفة وهي تغادر الغرفة :

- أنا اعرف شخصاً لن يعجبه تغيير الأثاث ، ابنتها .. إنها تكره التغيير ؟

* * *

تناولت لورا كتاباً أخذت تتصفحه ، وما هي إلا دقائق حتى سمعت صوت المفتاح يدور في ثقب الباب الخارجي ، ثم سمعت صوت الباب يفتح وترامى اليها صوت شخصين يتحدثان في مرح ..

صوت آن برنتيس وصوت رجل .

كانت برنتيس تقول :

- ها هو خطاب من ابنتي سارة .

ثم دخلت الغرفة وفي يدها الخطاب ، وخلفها ريتشارد كولدفيلد . فوجئت برنتيس برؤية ضيفتها ، فارتبكت لحظة ، ثم تمالكت نفسها وصاحت :

- لورا . يا لها من مفاجأة رائعة .. هذا هو مستر ريتشارد كولدفيلد وهذه هي السيدة ويتستابل .

نظرت لورا إلى الرجل بامعان ، وحددت معالمه في ذهنها بسرعة .. شخص من الطراز العادي ، عنيد ، أمين ، طيب القلب ، عديم الاحساس

جاد ، حساس ، وواقع في غرام برنتيس ..

ثم بدأت تتحدث اليه بصوتها العميق !

قالت برنتيس :

– سوف أطلب من أديث أن تحضر لنا الشاي ..

صاحت لورا :

– لن أشارككما الشاي يا عزيزتي ، انها الساعة السادسة تقريبا

توقفت برنتيس لحظة ، ثم أكملت :

– سوف أشرب الشاي مع ريتشارد إذاً ، فقد كنا في حفلة موسيقية ، ماذا تشربين ؟

– براندي مع الصودا !

– حسناً ..

ثم غادرت الغرفة !

سألت لورا ريتشارد :

– هل أنت مغرم بالموسيقى يا مستر كولدفيلد ؟

– نعم ، وخصوصاً موسيقى بيتهوفن .

– جميع الانجليز يحبون بيتهوفن ، إن موسيقاه تبعث النعاس إلى جفوني أنا آسفة لهذا الرأي ولكني لا احب هذه الموسيقى !

قدم لها ريتشارد علبة سجائره قائلاً :

– سيجارة يا مدام ؟

ولكنها رفضت قائلة :

– شكراً .. أنا لا أشرب السجائر .

ثم نظرت اليه بحدة وسألته :

- إذن أنت من ذلك النوع من الأشخاص الذين يفضلون أن يشربوا الشاي بدلاً من الشيري في السادسة مساء !

- ليس بالضبط .. إني غير مغرم بشرب الشاي . ولكن يبدو أن آن تحب الشاي ، وأنا أشاركهما ذلك الشعور ، أرجو ألا تجدي هذا الكلام مضحكاً !

- على العكس . الواقع أن برنتيس من ذلك النوع من النساء ، تبدو في أحسن حالاتها وهي جالسة خلف صينية شاي فضية عليها فناجين صينية لامعة مليئة بالرسوم البديعة ؟

قال ريتشارد في سرور :

- ما أشد صواب رأيك !

- أنا اعرفها منذ سنوات بعيدة ، وانا أحبها كثيراً .

- حدثتني برنتيس عنك كثيراً ، وسمعت عنك الكثير من قبل بالطبع !

ابتسمت لورا واجابت :

- نعم ، انا واحدة من اللاتي يحضرن الاجتماعات العامة واللاتي يدلين بآرائهن في الاذاعة ، ولكني خرجت من تجاربي بشيء هو انه مهما حقق المرء في الحياة ، فإن هذا الذي حققه ضئيل جداً ، وكان يمكن أن يحققه غيره .

احتج ريتشارد :

- هذا رأي متشائم يا سيدتي ، اليس كذلك ؟

- إذن أنت لا توافقني على هذا الرأي ؟

- مع الأسف لا .. أعتقد أنه إذا أراد أي شخص أن يحقق شيئاً

في هذه الحياة ، فإن أول ما عليه هو ان يؤمن بنفسه .

- لماذا ؟ قد اكون طراز قديم ، ولكني افضل أن يعرف الانسان نفسه ويؤمن بالله .

قال ريتشارد في حيرة :

- يؤمن ؟ يعرف ؟ اليسا شيئاً واحداً ؟

هزت المرأة رأسها وقالت :

- لا .. ليسا نفس الشيء ، انا اؤمن بنظرية انه يجب على الانسان أن يمضي شهراً من حياته كل عام في صحراء بعيداً عن الناس جميعاً .

قال ريتشارد باسماً :

- هذه نظرية ظريفة ، بشرط طبعاً ان تكون مجموعة من الكتب تملأ وقت فراغه !

هتفت لورا :

- لا .. لا ! هذا هو لب النظرية ، الابتعاد عن الكتب ، الابتعاد عن المعرفة الجاهزة ، يكفي ان يكون معه زاد وماء ثم لا شيء .. لا شيء على الاطلاق : لا كتب ، لا راديو ، لا جرائد ، لا شيء إلا الانسان ونفسه .. ذلك يساعد الانسان على ان يقترب إلى نفسه ، ان يتعرف عليها .

- الا تعتقدين إن كل انسان يعرف نفسه ؟

هزت لورا رأسها في عناد وردت :

- بكل تأكيد لا ، الانسان لا يملك الوقت اللازم لنفسه ، إن ضغط المدنية الحديثة يفرض على الانسان ان يعرف ما يعجبه في نفسه .

وفي هذه اللحظة دخلت برنتيس باسمة وهي تحمل زجاجة في يدها قائلة :

– ها هو البراندي مع الصودا يا عزيزتي . وسوف تحضر الوصيفة الشاي .. فيم كنتما تتحدثان ؟

– لقد كنت اشرح له نظرياتي الصحراوية .

ردت برنتيس ضاحكة :

– أوه .. اعرف نيتك يا عزيزتي كيف يعيش الانسان وحيداً في الصحراء حتى يكتشف مدى بشاعة نفسه !

قال ريتشارد جاداً :

– هل كل انسان يحوي نفسا بشعة ؟ أنا اعرف ان علماء النفس يؤكدون ذلك ، ولكن لماذا بحق السماء ؟

اجابت لورا على الفور :

– لأن الانسان إذا عرف جانباً من نفسه فإنه سوف يحرص على أن يعرف الجانب الحسن فقط .

قالت برنتيس :

– كل هذا معقول يا عزيزتي ، وإنما على فرض تحقيق نظريتك ، ماذا يحدث بعد أن يعيش الانسان في الصحراء ويكتشف بشاعة نفسه ؟ ماذا يفعل ؟ هل يستطيع ان يغير نفسه ؟

– لا .. ليس من السهل ان يغير الانسان نفسه ، وإنما المعرفة تعطيه على الأقل المرشد إلى ما قد يحدث منه وله في حالات معينة وتجعله يعرف ، وهذا هو الأهم ، لماذا يتصرف كما يتصرف !

– انا اتصور ان الانسان يستطيع أن يعلم ماذا يفعل في اي حالة معينة ، يكفي ان يتخيل نفسه في هذه الحالة ..

– لا يا عزيزتي آن .. تخيلي مثلاً ذلك الشخص الذي يتمرن على ما سيقوله إلى رئيسه في العمل او خطيبته او حتى جـــاره .. إنه يرتب الكلام جيداً ويحفظه ، ولكن عندما تأتي لحظة التنفيذ ، إذ به إما ان يجد لسانه معقوداً ، وإما ان يقول كلاماً مختلفاً تماماً عما رتبه ، إن الناس الذين يؤمنون تماماً بأنهم قادرون على التصرف الحكيم ، امام ازمة هم على التحديد الناس الذين يفقدون روعهم امـام هذه الأزمات ، بينما الذين يشعرون بأنهم عاجزون عن مجابهة المواقف يدهشون الناس ، ويدهشون انفسهم ، بامتلاكهم ناصية الموقف تماماً ..

– ما تقولينه الآن معقول تماماً .. انت تعنين إن الناس يتمرنون على محادثات وتصرفات خيالية .. كما يحبون ان تكون هذه المواقف ، ولكني ايضاً اعتقد إن الانسان يعلم جيداً نفسه وكل امكانياته .

قالت لورا في اشفاق :

– يا طفلتي العزيزة ، هل تعتقدين مثلاً انك تعرفين آن برنتيس ؟

اجابتها باسمة :

– نعم .. أعتقد إني اعلم إني لست انسانة لطيفة عموماً

وفي هذه اللحظة دخلت الخادمة ، وهي تحمل صينية الشاي .

قالت اديث :

– ها هو خطاب سارة يا سيدتي ، فقد نسيته في غرفة النوم !

– اوه .. شكراً !

خرجت اديث ، ووضعت برنتيس الخطاب على المنضدة دون ان تفتحه ..

اما ريتشارد كورلدفيلد فإنه شرب فنجان الشاي بسرعة ثم استأذن في الانصراف !

- ٢ -

تمتمت برنتيس بعد خروج ريتشارد :

– إنه إنسان لبق ، فقد انصرف كي يمنحنا الفرصة للحديث .

ولكن لورا لم ترد عليها فوراً ، كانت تنظر اليها بامعان ، وتمعن في دهشة ذاك التغيير الرائع الذي ألمّ بصديقتها .

كانت ملامح آن الرضية الوادعة قد تحولت إلى جمال ساحر . فقد عرفت لورا ذاك التغيير في نساء اخريات ، وكانت تفهم مغزاه . هذه النظرات السعيدة ، هذا الاشعاع البديع .. انه الحب !

امـا الرجـال ، فإنهم يصابون باكتئاب يجعلهم يبدون مثل الخراف الضالة ..

وسألت صديقتها اخيراً :

– ماذا كنت تفعلين بنفسك في هذه الفترة يا عزيزتي ؟

– اوه .. لا شيء خاص !

– إن ريتشارد كورلدفيلد صديق جديد .. اليس كذلك .

– نعم .. فقد عرفته منذ عشرة ايام فقط ، قابلته اول مرة في عشاء جيمس جرانت ، انه يعجبك يا لورا ، اليس كذلك ؟

ردت لورا مجاملة :

– يعجبني كثيراً !

– ان حياته السابقة كانت حياه حزينة !

وتممت لورا مغيره الحديث :

– ما هي اخبار ابنتك ؟

– اوه .. إنها تقضي وقتاً رائعاً .. الثلج بديع ، ولم يصب احد بحادث حتى الآن !

– هذا شيء يثير حزن اديث فيما اعتقد ..

وضحكت الصديقتان ..

– هذا الخطاب من ابنتي .. هل تسمحين لي بقراءته ؟

– طبعاً يا عزيزتي

فتحت برنتيس الخطاب وقرأته ، ثم ضحكت بمودة وأعطت الخطاب لصديقتها ، فقرأته ..

« ماما الحبيبة ..

الثلج مدهش هنا . الجميع يقولون ان هذا هو أحسن موسم انزلاق عرفته سويسرا .. روجر لطيف جداً معي .. وصديقتي لو تعتقد أنه يحبني ، ولكني أعتقد أن هذه ميول عادية منها ، لأنها تسعد عندما تراني أسقط فوق الثلوج .

قابلت هنا الليدي كرونشام ، ومعها ذلك الرجل المزعج من جنوب

أمريكا أشعر بميل نحو أحد المدربين ، ولكن من المؤسف أنه لم يتجاوب لأنه متعود على أن تشعر الفتيات بميل نحوه أثناء تدريبه لهن ..

لقد تعلمت أخيراً أن أرقص الفالس فوق الثلوج .. ما هي أحوالك يا ماما العزيزة ؟ أرجو ان تتمتعي بوقتك مع كل أصدقائك .

كيف حال صديقك العجوز كولونيل جرانت ..

إلى اللقاء قريباً . »

ابنتك المحبة

سارة

أعادت لورا الخطاب إلى برنتيس ، ثم قالت :

– نعم .. يبدو أن ابنتك تنعم بوقتها جيداً .. وأنت ؟

كانت برنتيس تفرك يديها في عصبية ..

واخيراً قالت :

– أعتقد أنني يجب أن اخبرك يا لورا .. ريتشارد كولدفيلد عرض علي الزواج .

سألتها لورا :

– متى حدث هذا ؟

– اليوم فقط ..

– وهل وافقت ؟

– أعتقد ذلك .. أوه ، لماذا اقول هذا ؟ فقد وافقت طبعاً !

– اليس هذا قراراً سريعاً جداً ؟

- تعنين إنني لم أعرف ريتشارد مدة كافية ؟ حسنـاً ، ولكن كلانا واثق من مشاعره نحو الآخر .

- وانت تعرفين الكثير عنه من خلال الكولونيل جرانت ، أنا سعيدة من اجلك يا عزيزتي ، تقبلي تهاني الخاصة

ضحكت برنتيس بعصبية وتمتمت :

- ان الأمر يبدو لك صبيانياً ، غير اني في الحقيقة مغرمة كثيراً به !

- لماذا يبدو صبيانياً ؟ هل يحبك هو إلى هذه الدرجة ؟

- أكثر ..

- الحق ان هذا يبدو واضحـــاً عليه .. نعم إنه يبدو كالخروف الضال تماماً .

- ريتشارد يبدو مثل الخروف ؟ ما هذا الكلام ؟

- يا عزيزتي .. كل عاشق يبدو مثل الخروف .. هذا قـــانون الطبيعـــة

- إنما يعجبك يا عزيزتي ، أليس كذلك ؟

أجابت لورا ببطء :

- إنه شخص بسيط جداً يا آن !

- بسيط ؟ ربما .. ولكن أليس هذا أفضل ؟

- وهو حساس ايضاً .. حساس جداً !

- ما أذكاك يا لورا .. نعم هو حساس حقاً .

سألتها لورا :

- هل اخبرت سارة ؟

ـ ليس بعد بالطبع . فقد اخـــبرتك ان عرض الزواج حدث اليوم فقط ..

ـ اعرف هذا ، وإنما اسألك عما إذا كنت قد حدثت ابنتك عنه في خطاباتك ؟ مهدت الطريق ؟

ـ لا .. سوف اكتب لها وأخبرها .

وترددت لحظة قبل أن تقول :

ـ لا اعتقد أن سارة سوف تمانع في الزواج ، اليس كذلك ؟

ـ هذا شيء لا يمكن التنبؤ به !

اجابت برنتيس فيما يشبه الحلم :

ـ إن سارة تحبني كثيراً ، وتحب سعـــادتي ، وهي شابة لطيفة ، أعتقد .. اعتقد إنها سوف تجد الأمر كله مضحكاً !

ـ معقول كثيراً .. هل يضايقك هذا ؟

ـ لا يضايقني .. وانما سيضايق ريتشارد بالتأكيد .

ـ من أجل هذا افضل ان تعلم ابنتك الخبر السعيد قبل عودتها من سويسرا ، بذلك يكون لديها الوقت الذي يجعلها تتعود على هذا التغيير الجديد .. هل حددتما موعداً للزواج ؟

ـ ريتشارد يريد ان نتزوج بأسرع ما يمكن ، وفي الحقيقة ، فأنا ايضاً لا ارى داعياً للانتظار .

ـ نعم .. كلما بادرتما بالزواج كان ذاك افضل .

ابتسمت برنتيس في سرور وأجابت :

ـ الظروف تسير في صالحنا ، فقد حصل ريتشارد على وظيفة في شركة

(اخوان هيلز)

- هذا بديع ..

ثم قامت وقبلت برنتيس مهنئة ، نظرت اليها قائلة :

- والآن ما معنى هذا العبوس المفاجيء ..

- إني افكر في ابنتي ، أرجو ألا تستاء من زواجي .

- يا عزيزتي برنتيس ، حياة من تحبين ؟ حياتك أم حياة ابنتك ؟

- حياتي طبعاً ، وإنما ..

قاطعتها لورا قائلة :

- اذا استاءت ابنتك دعيها تستاء ، ستتغلب على استيائها سريعاً .. انها تحبك .

- هي تحبني .

- وهذا شيء يؤلمك ، حرصك على مشاعرها ، نعم .. لا شيء يؤلم مثل الحب .. وكلما زاد عدد الأشخاص الذين يحبونك كلما ازدادت الامك ، من حسن الحظ انه ليس في حياتي من يحبني ، معظم الناس يكرهونني والباقون لا يهتمون بي .

قالت برنتيس محتجة :

- لورا .. هذا غير صحيح ..

. وداعاً يا عزيزتي .. وأرجوك ألا ترغمي عزيزك ريتشارد على ان يقول انه يحبني ، انا اشعر مقدماً انه لم يرتح لي .. واطمئني فذاك لا يزعجني قط ..

* * *

وفي المساء كانت لورا تجلس مع صديق لها في احد المطاعم ، وكان الصديق يتحدث في حماس عندما لاحظ فجأة شرودها .

سألها :

- ما الذي يزعجك يا لورا ؟

- أوه .. كنت أفكر في أم وابنتها ..

- ام طاغية ؟

- بل بنت طاغية ..

الفصل الخامس

سارة

- ١ -

قال البروفيسور جودفري فين :

- حسنا يا عزيزتي برنتيس .. طبعا انا ارجوك ان تقبلي تهـاني ، او اي شيء يقوله الناس في هذه المناسبات ، ان خطيبك رجل سعيد الحظ جداً بك .. نعم سعيد الحظ كثيراً ، أنا لم أقابله بعد ، او هل قابلته ؟ أخشى اني لا أذكر اسمه .. هل هو صديق قديم لك ؟

- لا .. فقد قابلته منذ ايام معدودة .

نظر اليها البروفيسور من فوق نظاراته وكأنه ينظر الى عينة علمية في المعمل ثم قال :

– ايام معدودات ، اليس قراركما الزواج اذاً قراراً سريعـا ؟ قراراً اهوج ؟

ردت برنتيس في ثقة :

– لا .. لا اعتقد هذا ؟

– الزواج في قبائل « الماثا وايالا » ، لا يتم الا بعـد خطوبة سنة او سنة ونصف .

قالت برنتيس ضاحكة :

– لا بد إذاً أنها قبائل حذرة جداً ، كنت أعتقد أن المتوحشين يتصرفون تبعاً لأهوائهم السريعة .

صاح البروفيسور في ذعر :

– « الماثا وإيالا » قبائل متوحشة ؟ هذا خطـأ . خطأ فاحش ، إن لهم مدنية واضحة أصيلة ؛ إن طقوس الزواج عندهم معقدة للغاية ، هل تعرفين ماذا يحدث للعروس ليلة الزفاف ؟ ولكن دعينا من هذا . هذا شيء لا أستطيع أن أناقشه مع سيدة ، ولكنها في الواقع طقوس غريبة جداً ويبدو أنها بدأت عندما تزوجت الأميرة .. ولكن دعينا من هذا ، في الحق لا يجوز أن أناقش هذه التفاصيل معك ، فيما نتكلم إذاً .. اه .. هدية الزواج ، ما هي الهدية التي تحبين أن أقدمها لك بمناسبه الزواج يا عزيزتي ؟

.. ليس هناك أي داع لأن تقدم لي أي هدية يا عزيزي جودفري

هز البروفيسور رأسه في عناد وقال :

– لا لا . لا بد ا ما هي الهدية المعتادة ؟ تحفة فضية ؟ أم

اطلها طقم ملاعق ؟ أو جهاز لتسخين الخبز ؟ اه . نعم .. إناء للزهور ، ولكن بحق السماء يا برنتيس قولي انك تعرفين شيئاً عن هذا الزواج ، أو أن لكما معارف مشتركين ، كثيراً ما نقرأ حوادث مؤلمة تنجم عن مثل هذا الزواج .

ـ تأكد انه لم يلتقطني من الرصيف ، واني لم اؤمن على حياتي لصالحه !

نظر اليها جودفري فين في ذعر ، ولكنه اطمأن عندما رآهـــا تضحك وقال :

ـ حسناً .. ربما ازعجتك بقلقي ، انما على الانسان أن يحتاط دائماً ما هو رأي ابنتك الصغيرة بهذا الزواج ؟

اكفهر وجه برنتيس لحظة .. اجابت بعدها ببطء :

ـ لقد كتبت خطاباً إلى سارة في سويسرا ، ولكني لم اتلق رداً منها بعد ، لم يمر وقت طويل طبعاً ، وإن كنت توقعت ..

ولم تكمل برنتيس الجملة ..

قال البروفيسور الذاهل :

ـ من الصعب كثيراً أن يتذكر الانسان ان يرد الخطـابات التي ترد اليه ، فقد دعيت مرة إلى القاء محاضرات في جـامعة اوسلو ، وكان في نيتي أن أوافق ، وأن ارد عليهم بموافقتي ، ولكنني نسيت كل شيء حتى عثرت على هذه الدعوة في جيب معطف قديم !

قالت برنتيس في اشفاق :

ـ ما هو موعد المحاضرات ؟

في مارس ..

– حسنا ، ما يزال هناك وقت حتى يحل مارس .

– مارس الماضي يا عزيزتي !

ضحكت برنتيس قائلة :

– يا إلهي .. ولكن يا عزيزي جودفري ، كيف يبقى الخطاب في جيب معطف طوال هذه المدة ؟

– لقد كان معطفا قديما .. كان احد اكمامه قد تمزق ، ولم يعد بامكاني الظهور به امام الناس فوضعته جانبا وبه الخطاب

– يجب ان يعتني بشؤونك احد يا جودفري .

هز رأسه وقال :

– لا أنا أفضل ألا يهتم أحد بشؤوني .. كان عندي في وقت من الأوقات مديرة منزل قديرة ، وكانت طباخة ممتازة ايضا ، ولكنها كانت تجمع اوراقي ، وتلقي بها في المدفأة بحجة النظافة ، إن النساء يقدمن على النظافة وكأنها لون من العبادة .

– هناك من يقولون ان النظافة عبادة فعلا .

تنهد البروفيسور بدون مناسبة ، ثم قال :

– حسنا . سوف اتركك الآن يا عزيزتي آن .. ولكنني سوف افتقدك كثيراً .

ردت باسمة :

– ولكنني لن أضيع يا جودفري .. اني لن اغادر لندن ، فقد حصل ريتشارد على وظيفة في لندن ، وسوف نبقى هنا ، انا واثقة أنك

ستعجب بريتشارد .

تنهد البروفيسور مرة ثانية وقال :

– ربما .. ولكن الأمر لن يكون كما كان سابقـــا ، عندما تتزوج امرأة جميلة من رجل اخر ؟

توقف جودفري عن الكلام ، ثم ضغط يدها بحرارة قائلا :

– لقد كنت تعنين الكثير لي يا آن ، فقد جرؤت على أن أمل .. ولكن لا .. لا .. لم يكن هذا ممكنا مع عجوز مذهول مثلي كان ذلك يصيبك بالملل .. ولكني اقدرك جداً يا برنتيس وأتمنى لك السعادة من أعماق قلبي ، هل تعلمين عماذا تذكرينني دائما ؟ بتلك الأبيات الرائعة من شعر هوميروس ..

ثم شرع يتلو لها الأبيات المختارة ، وفي النهاية ابتسم في طفولة وقال :

– هكذا ..

– أشكرك يا جودفري ، ولكني لا أفهم معنى هذه الأبيات ..

قال في حماس :

– إنها تعني ..

ولكنها قاطعته :

– لا .. لا تشرح لي .. إنها تبدو رائعة بدون معنى ، وداعـــاً يا جودفري العزيز ، وشكراً لك ! لا تنسى قبعتك ، هذه ليست مظلتك إنها مظلتي ؟

* * *

ودعت برنتيس ضيفها حتى الباب ، ثم أغلقت الباب خلفه وعادت لتجد اديث تطل عليها من باب المطبخ قائلة .

– إنه وديع كطفل ، اليس كذلك ؟ كما إنه بارع في دراساته ، إنما لماذا يهتم بهذه القبائل المتوحشة ذات العادات القذرة ؟ إنه شخص اطيف وليس عجوزاً أيضاً .

أجابت برنتيس :

– إنه في الخامسة والأربعين .

– ألم أقل لك ؟ إنها كثرة القراءة وسوء التغذية التي تجعله يبدو بهذا المظهر الحزن ، لقد فقد ابن اخي شعر رأسه كله عندما أصيب بالحمى ، وإنما الشعر نما بعد فترة ، ها هما خطابان لك .

تناولت برنتيس الخطابين ثم قالت :

– أديث .. هذا هو الخطاب الذي أرسلته لابنتي .. لماذا أعادوه لي بدون تسليمه اليها ؟ أوه .. ما أغباني ، فقد كتبت العنوان ، وإنما نسيت ان اكتب اسم ساره ، ماذا جرى لي ؟

– أنا أعرف ماذا جرى لك ؟

– اني أصبحت أتصرف بغباء شديد .. الخطـاب الآخر من لورا ويتستابل .. اوه ما الطفها .. سوف أكلمها تليفونيا .

ورفعت السماعة وطلبت صديقتها :

– الو ؟ لقد استلمت خطابك الآن ! هذا لطيف جداً منك يا عزيزتي ! نعم .. سيسعدني كثيراً أن أحصل على لوحة بريشة بيكاسو ، طالما حلمت بأن امتلك واحدة لبيكاسو ، سأضعها أمام مكتبي مباشرة .. أوه .. يا

عزيزتي .. فقد كنت حمقاء كثيراً . تصوري اني كتبت خطاباً لسارة ذكرت لها فيه كل شيء عن الزواج ، ولكن الخطاب عـــاد لي ، لأني كتبت العنوان ونسيت ان أكتب اسم سارة ، تصوري مدى غبائي ..

جاءها صوت صديقتها العميق :

— معقول جداً ..

— ماذا تعنين بقولك معقول ؟

— أعني ما قلته تماماً .

— انا افهم أفكارك من نغمات صوتك .. أنت تفكرين في شيء نفسي لتصورين إني نسيت أن اكتب إسم سارة ، لأن عقلي الباطن لم يرد أن يصل الخطاب اليها ، هذه نظريتك في تفسير جميع الأخطاء .

— ليست نظريتي أنا ..

— على أي حال فهذا غير صحيح ، ماذا افعل الآن وسارة ستعود إلى المنزل بعد غد دون ان تعلم شيء عن اعتزامي الزواج ، فسأضطر أن أشرح لها كل شيء دفعة واحده ، فأشعر بحرج شديد .. في الواقع لا ادري كيف أبـدأ ؟

— انت التي أوجدت نفسك في هذا الموقف لأنك لم تريدي ان تستلم ابنتك الخطاب !

قالت برنتيس في عصبية :

— كل إنسان معرض للنسيان يا لورا ، فقد كان عندي الآن جودفري فين وأخبرني انه نسي دعوة لالقاء محاضرات في جيب معطفه اكثر من عام هل تزعمين انه ايضاً أراد ان ينسى هذه المحاضرات ؟

لم ترد لورا ، ولكنها ضحكت ضحكة طويلة ..

ثم سألتها :

– هل كان يريد ان يلقي هذه المحاضرات ؟

– طبعاً ..

ضحكت مرة ثانية قائلة :

– معقول ..

– ٢ –

كان ريتشارد كولدفيلد يعيش أحلى ايام حياته !

كان يشعر بأنه رجل سعيد ، وكان يرى ان حياته كانت عرضة لهذات عديده قد استقرت أخيراً إلى مرفأ هادىء امين .

كان قد استوعب مهام وظيفته الجديدة ، وكانت صداقته القديمة بيريك هيلفر اصحاب شركة (اخوان هيلفر) قد أثبتت أنها صداقة راسخة .

أما العمل نفسه فقد كان عملاً فنيا يعتمد على خبرته بالحياة في بورما والشرق الأقصى .

لم يكن ريتشارد كولدفيلد نابغة ، ولكنه كان مخلصاً دؤوبا ، ومحباً للعمل .

وكانت مشاعره الأولى بالوحدة والاغتراب التي صاحبته إلى انجلترا قد اختفت .

كان يشعر بأنه ليس في الامكان ابدع ما هو كائن ، وظيفة مريحة مربحة ، رئيس عمل صديق ، ومستقبل تحتل صدارته المرأة التي يحبها والتي ينوي ان يتزوجها .

والواقع أنه كان يتساءل عما يجعل هذه المرأة الجميلة الوديعة الجذابة تقع في حبه .. كان يكتشف في بعض الأحيان انها تنظر اليه وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة ، ولم تسخر منه آن قط ، بل انه مع الوقت تعود على هذه الابتسامة ، وتعلم أن يتمتع بها كما يتمتع بكل ما يصدر عن عزيزته برنتيس !

قال لها ذات مرة :

– انت طيبة جداً معي يا آن .. انك تجعليني أكثر انسانية .

وردت عليه في الحال :

– كل منا يناسب الآخر يا ريتشارد !

– ليس عندي الكثير لأقدمه اليك فيما عـدا حبي واهتمامي بك الى اخر لحظة من عمري !

واجابت باسمة :

– لا تهتم كثيراً يا ريتشارد .. لا تشجع نقاط ضعفي .

قال في دهشة :

– نقاط ضعفك ؟ ليس بك أي نقطة ضعف .

– لا تجاملني .. اني أعرف نواحي الضعف في نفسي ، اعلم اني احب

أن يجاملني الآخرون ، اعلم اني لا أحب أن اجامل الآخرين على حساب مشاعري ، اعلم اني لا احب المشاحنات ولا النقار ؟

قال في ارتياح :

– حمداً لله .. اني أكره ان اتزوج امرأة مشاكسة لا تكف عن النقار ، لقد رأيت نساء من هذا النوع ، ان اشد ما يجذبني اليك هو طبيعتك الجميلة الهادئة ، يا اعز الناس سوف نكون سعداء للغاية معاً !

قالت في اخلاص :

– نعم .. سنكون سعداء معا .

وكانت برنتيس تلاحظ ان ريتشارد قد تغير كثيرا عما عرفته ، لم يعد في حالة دفاع عن نفسه ضد الشعور بالاغتراب والشعور بالوحدة ، فقد اصبح – كما قال – اكثر انسانية واكثر ثقة في نفسه واكثر قدرة على التصادق .

* * *

سار ريتشارد في الشارع وهو يصفر لحنا (قديما) مرحا .

ثم دلف الى محل للزهور وخرج منه وهو يحمل باقة جميلة من الزهور !

وصل الى منزل آن ، ثم صعد الى الطابق الثالث حيث توجد شقة برنتيس .

دق جرس الباب وفتحت له اديث ، وفي الحال سمع صوت ان تصيح

من داخل الشقة :

– اديث . . هل رأيت حقيبتي ؟ فقد وضعتها في مكان ما ولا استطيع العثور عليها ؟

قال ريتشارد :

– مساء الخير يا اديث . .

ثم دخل امامهــــا الى الشقة ، لم يكن يشعر بارتياح ، وكان يحاول ان يغطي هذا الشعور الغادر بمبالغة في التلطف معها ، وان كان يشعر ان هذه المحاولات غير مقنعة ، وكان ذلك يزيد في حرجه .

اجابت الخادمة في احترام :

– مساء الخير يا سيدي !

وجاءه صوت برنتيس يصيح من جديد :

– أديث ؟ ألم تسمعي ؟ ادخلي هنا فوراً . .

ثم ظهرت وفوجئت برؤية ريتشارد .

قالت الخادمة :

– لقد حضر المستر كولدفيلد يا سيدتي .

تقدمت آن نحوه في دهشة وصاحت :

– ريتشارد تعال معي . .

ثم استدارت إلى اديث قائلة :

– ابحثي عن هذه الحقيبة فوراً ، لعلها في غرفة سارة ؟

ثم جذبت ريتشارد من ذراعه إلى الداخل . .

غمغمت الوصيفة وهي تبتعد :

- في المرة القادمة ستفقدين رأسك

لم يكن ريتشارد يستريح إلى هذه الطريقة التي تتحدث بها اديث إلى آن .. لم يكن الخدم يخاطبون مخدوميهم بهذه الطريقة منذ سنوات.

قالت له :

- ريتشارد . هذه مفاجأة ، لم أكن انتظرك اليوم ، فقد تواعدنا على أن تتغذى معنا غداً .

قال باسماً :

- لم استطع الانتظار حتى الغد ، انظري . فقد أحضرت لك هذه الزهور

تنــــاولت منه الزهور وشكرته ، ولكنه لاحظ أن الغرفة مليئة بالزهور .

قال ريتشارد :

- أنت تبدين في غاية السرور والانفعال .

- طبعاً .. إن سارة ستصل اليوم !

- حقاً ؟ فقد نسيت ..

قالت في عتاب :

- ريتشارد ..

ولكنه كان قد نسي حقاً ، فقد اخبرته بوعد وصول ابنتها مرات ومرات ، عندما كانا معاً في المسرح في الليلة السابقة ، لم يشر أحدهما إلى هذه الحقيقة بكلمة واحدة .

كانت قد اتفقت معه على أن تبقى بمفردها مع ابنتها يوم وصولها على

ان يزورها في اليوم التالي ويتناول الغذاء معها ، قال :

— انا اسف حقاً يا عزيزتي ، فقد نسيت تماماً الموعد ، ولكن لم أنت منفعلة هكذا ؟

ردت في عصبية :

— أريد أن أسرع إلى المحطـــة لأكون في استقبال ابنتي ، انت لا تتصور كم أنا مشتاقة اليها !

ثم نظرت إلى ساعتها قائلة :

— على العموم عندي بضع دقائق نقضيها معاً .

دخلت الخادمة الغرفة وهي تحمل الحقيبة قائلة في امتعاض :

— وجدتها في دولاب الغسيل !

ضحكت برنتيس وقالت :

— أوه . لا بد إني وضعتها هناك عندمـــا كنت أبحث عن أكياس المخدات . هل وضعت الملايات الخضراء على سرير سارة ؟ هل نسيت ؟

— وهل أنا ممن ينسون ؟

— وهل وضعت السجائر على الطاولة ؟

— نعم !

— و « توبي » و« جامبو » ؟

— نعم نعم !

ثم هزت رأسها في كبرياء وخرجت من الغرفة

نادتها ان :

— ضعي هذه الزهور التي أحضرها مستر كولدفيلد في إناء .

تناولت الخادمة الزهور وهي تقول :

– لم يعد هناك مكان خال لزهور جديدة ، ولكني سأرى ما يمكن عمله .

ثم حملت الزهور وخرجت .

قال ريتشارد :

– ان .. لم ارك من قبل قط في هذه الحالة ، انت منفعلة كأنك طفلة !

ضحكت بانفعال :

– انا لا اتمالك نفسي عندمـا اتصور اني سأضم ابنتي إلي صدري بعد قليل .

قال فيما يشبه العناد :

– نعم .. لقد افترقتما دهراً .. ثلاثة اسابيع كاملة ..

نظرت اليه ان في استسلام لطيف وقالت :

– تسخر مني يا ريتشارد .. اعترف بأني احب سارة بجنون .. هل يضايقك هذا ؟

– بالطبع لا ، انا أيضاً متلهف إلى لقائها !

– إنها هوائية وعاطفية ، وانا واثقة أن كلا منكما سوف يحب الآخر .

– انا واثق من ذلك !

ثم أضاف باسماً :

– إنها ابنتك فلا بد أنها فتاة جميلة جداً .

– هذا قول لطيف منك يا ريتشارد ..

ثم وضعت يدها على كتفيه ورفعت وجهها اليه فاحتواها بين ذراعيه وقبلها ..

قالت وهي ما تزال بين ذراعيه .

- أرجو أن تكون صبوراً معي يا ريتشارد ، اقصد حتى تتعود ابنتي على فكرة زواجنا ، إن الخبر قد يكون صدمة لها ، لو اني لم أنس كتابة اسمها على الخطاب ؟

قال في عطف :

- هدئي روعك يا عزيزتي . أنت تعرفين انك تستطيعين الوثوق بي . قد تتأثر سارة في البداية ، ولكننا سنعمل معاً على اقناعها بأن هذا الزواج شيء رائع في صالح الجميع ، تأكدي اني لن أغضب إذا سمعت أي كلام يمليه عليها انفعالها .

- اوه .. هي لن تقول شيئاً ، إنها فتاة حسنة التربية ، ولكنها تكره التغيير هذا كل ما في الأمر .

- ولكنها فتاة ناضجة وستقدر ان هذا الزواج يسعدك .

ولكن وجهه ان ظل مكفهراً ، قالت :

- لو إني كتبت لها على الفور .

ضحك ريتشارد عاليا وقال :

رباه يا ان من يراك يتصور انك طفلة صغيرة ضبطت وهي تسرق المربى ؛ تشجعي يا عزيزتي ؛ سيكون كل شيء على مـا يرام ؛ سأنجح في اكتساب رضا ابنتك ؛ سنصبح أصدقاء .

نظرت اليه ان في شك ؛ لم تنجح طريقته المرحة في طرد وساوسها ؛ بل ربما كانت تفضل أن يبدو قلقا مثلها .

واستمر ريتشارد يقول :

– آن .. لا يجب ان تستسلمي للوساوس هكذا ؟

– هذا ليس من طبيعتي حقا !

– ولكنك الآن كتلة من الانفعال والعصبية ، الأمر بسيط يحدث كل يوم ، اننا سوف نتزوج ولسنا بصدد ارتكاب جريمة :

قالت في حيرة :

– الأمر كله هو اني خجولة ، لا اعرف ماذا اقول لسارة ، لا أدري من أين ابدأ .

– لماذا لا تقولين لها ببساطة : « سارة .. هذا هو ريتشارد كولدفيلد الذي سأتزوجه في القريب العاجل » ؟

ابتسمت برنتيس رغما عن انزعاجها وتمتمت :

– بهذه الغلظة ؟

– اليست هذه هي الطريقة المثلى ؟

أجابت في تردد :

– قد تكون على حق .. ولكني ساشعر بأني حمقاء !

هتف :

– حمقاء ؟

– نعم .. كيف أتصور نفسي ، وأنا أخبر ابنتي الشابة بأني سوف اتزوج ؟

– لا أرى عيبا في هذا !

– هذا لأنك لا تعرف كيف تنظر البنات الى امهاتهن والأبناء الى اباءهن ، انهم يتصورون أن ذويهم قد انتهوا من الحب ومن كل المشاعر

الدنيوية ، إنهم يحلمون على ذويهم هـــالة تجعل من المتعذر عليهم أن يخلعوا عليهم صفات ادمية ، كل أم هي امرأة عجوز بالنسبة لابنتها ، كل ابنة تتصور أن الحب من خصوصيات الشبـاب فقط .. وهـذا ينطبق على ابنتي سارة أيضاً ، سوف ترى في زواجي شيئـاً مثيراً للسخرية !

قال في انفعال :

ـ لا أرى في زواجك مني ما يدعو للسخرية .

ـ من وجهة نظرك طبعاً نحن متفقان .

نظر اليها ريتشارد برهة مقطب الجبين ..

ثم قال بصوت متجهم .

ـ اسمعي يا عزيزتي .. أنا أعلم أنك وسارة متعلقتـان احدا كا بالأخرى كثيراً ! وأعـلم أيضاً أن ابنتك قد تشعر بالغيرة مني ، وإذا حدث هذا فهو أمر طبيعي ، وأنا على استعداد لقبوله ، بل لعلهـا ستكرهني في البداية ، ولكنها في النهاية ستتخلى عن مشاعرها الصبيانية ، سوف تعلم أن لك الحق مثلها في أن تعيشي حياتك الخاصة ، وأن تبحثي عن سعادتك ؟

احمر وجه برنتيس وأجابت :

ـ تأكد أن ابنتي لن تحقد على سعادتي .. ليس هناك أي وضاعة أو دناءة في خلق سارة . إنها أكرم مخلوقة في هذه الدنيا .

.. الحقيقـة إذاً .. أنك تصنعين من الحبـة قبـة .. من يدريك أن ابنتك لن تطير من الفرح عندما تعلم بخبر زواجنا ؟ إن هذا الزواج

أيضاً سوف يحررها أكثر من روابط المنزل .

- يحررهـــا من روابط المنزل ؟ أنت تتكلم كما كان يتكلم الناس منذ مائة عام !

ـ هل الحقيقة غير ذلك ؟ هل الحقيقة هي أن الأم لا تريد لفراخها أن تغادر العش ؟

.. أنت مخطىء يا ريتشارد . مخطىء تماماً !

ـ لم أكن أريد ان أخيفك يا عزيزتي ، ولكن حب الأم الزائد قد يكون ضد صالح أبنائها . أذكر أني كنت شغوفاً كثيراً بأبي وأمي ولكن الحياة معهما كانت تثير جنوني . كانا يسألاني كل يوم عما إذا كنت سأتأخر في الخارج ، ويسألاني عن الأماكن التي أذهب اليها .. لا تنس مفتاحك . لا تحدث ضجة عند عودتك متأخراً .. لقد نسيت نور الصالة مضاء بالأمس . ماذا ؟ هل تريد أن تخرج الليلة أيضاً ؟ أنت لا تقدر مشاعرنا نحوك ؟

توقف ريتشارد عن الكلام لحظة ثم قال :

لقد كنت أقدر مشاعرهما نحوي كثيراً ، ولكن يعلم الله كم كنت أتوق للانفصال عنهما .

ـ أنا أفهم كل هذا طبعاً .

ـ لا تغضبي إذاً ، إذا اتضح لك أن سارة تحلم باستقلالها عنك أكثر مما تتصورين ، لعلها تريد أن تكون فتاة أعمال

ـ ابنتي ليست فتاة أعمال ؟

ـ هذا ما تتصورينه ، ولكن هناك فتيات كثيرات يعملن جنباً إلى

جنب مع الرجال .

– هذا بسبب الحاجة المادية .

– ماذا تقصدين ؟

قالت برنثيس بضيق ·

– أنت متأخر عن هذا الزمن بخمسة عشر عاماً على الأقل ، كانت الموضة الشائعة قديماً هي الاستقلال عن الأبوين ، وما زالت بعض الفتيات يفعلن ذلك ، ولكنها لم تعد صرخة العصر . لقد فقدت تلك الموضة بهاءها وروعتها ، أصبحت الفتاة لا تعمل إلا إذا كانت محتاجة فعلاً إلى المال . ابنتي ليست بحاجة إلى المال ، وهي لا تعرف شيئاً ، إلا أنها تتقن بعض اللغات وتدرس ديكور تنسيق الزهور ، عندي صديق يملك محلاً للزهور ، وقد اتفقت معه على ان تعمل ابنتي معه ، إذا شاءت .. لا معنى إذاً للكلام عن فتيات الأعمال ، وعن الرغبة في الاستقلال والشوق إلى الحرية ، سارة هي فتاه طبيعية تحب أمها ، وتحب بيتها .

– أنا اسف يا عزيزتي ، ولكن ..

قطع عليه حديثه دخول الخادمة وعلى وجهها دلالات الذي كان يسترق السمع .. قالت :

– لا أريد أن أقطع حديثكما ، يا سيدتي .. ولكن الوقت يمر بسرعة ..

نظرت آن إلى ساعتها ، ثم اجابت :

– لا يزال عندي بضع دقائق .

ثم صرخت :

- رباه .. ساعتي متوقفة ، ما هي الساعة بالضبط يا أديث ؟

- الواحدة والنصف تماماً !

هتفت آن :

- يا إلهي .. سوف تصل ابنتي إلى المحطة ولا تجدني في انتظارها ، كل شيء يسير ضدي اليوم .. أين حقيبتي ؟ اه .. هـا هي .. اسمع يا ريتشارد .. لا تنصرف .. ابق حتى أعود وتناول معنا الشاي ، اعتقـد ان هذه أفضل طريقة ، والآن يجب أن اجري

هرعت برنتيس إلى الباب وخرجت ..

* * *

كانت أثناء خروجها قد اصطدم طرف ثوبها باناء أزهار ، به زهور التيوليب ، فأوقع بعض الزهور على الأرض ..

انحنت الوصيفة فوق السجادة والتقطت الزهور ، ثم أعادتها بعناية بالغة إلى الاناء قائلة :

- إن زهور التيوليب هي الزهور المفضلة عند الآنسة سارة .

قال ريتشارد بشيء من التذمر :

- يبدو أن هذا المنزل يدور كله في فلك الآنسة سارة !

اختلست الخادمة منه نظرة سريعة ، وقـــالت له بصوت مجرد من العاطفة :

- إنها فتاة مدهشة في الواقع ، وهذا شيء لا يمكن انكاره ، إنها شقية كثيرة الحركة والضجة ، ومعتادة على أن تترك كل ثيابها وأشيائها مبعثرة في كل مكان . إنها تثير جنوني ، وانا أنظف خلفها ، ولكني أعبدها رغم كل شيء .. لا يملك كل من يعرفها إلا أن يعبدها .. إنها جذابة ، وهذه هبة طبيعية لا حيلة لأحد فيها .

هناك فتيات غيرها مؤدبات لا يسببن أي متاعب لذويهن ، وينظفن كل شيء بأنفسهن ، ولكنهن مع ذلك غير محبوبات لأنهن ثقيلات الظل ، هذه أيضاً لعنة من السماء لا حيلة لأحد فيها ، قل ما شئت ، قل أنه عالم قاسي لا عدالة فيه ، ولكن هذا هو واقع الدنيا برغم ما يقوله السياسيون والحالمون والمثاليون عن وجوب العدالة والمساواة .

قال ريتشارد محاولاً ان يكسب ود الوصيفة الخيفة :

- لقد مضى عليك عهد بعيد وأنت مع مسز برنتيس ، اليس كذلك يا أديث ؟

- أكثر من عشرين عاماً ، فقد التحقت بخدمة امها قبل أن تتزوج مستر برنتيس الراحل ، فليرحمه الله ، كان سيداً مهذباً

نظر اليها ريتشارد بحدة .. هل تعرض المرأة به ؟ هل تقارن بينه وبين الزوج السابق ؟

سألها : هل اخبرتك مسز برنتيس أننا سنتزوج قريباً ؟

أومأت برأسها وردت :

- نعم ، ولو ان الأمر لم يخف علي من البداية !

- ارجو أن نصير أصدقاء أنا وأنت يا اديث .

ردت في تشاؤم

- أرجو ذلك يا سيدي .

- قد يسبب زواجنا لك مزيجاً من الجهد والعمل ، ولعله يحسن ان ان تستعين بامرأه اخرى لتساعدك .

- لا اوافق على ذلك ، إن هذه المرأه ستكون عاملا تعطيل اكثر منها عامل مساعد لي ، انا لا آكل ولا امل من العمل ، كل ما سيحدث هو تغيير نظام المعيشة ، نظراً لوجود رجل في المنزل .. وجبات الطعام مثلا ؟

رد ريتشارد باسما :

- انا لست شرها في العاده !

تمتمت على غير المتوقع :

- المهم هو اصناف الطعام لا كمياتها ، وعلى العموم فإن وجود رجل في المنزل سيضفي بهجة جديده على كل شيء .

قال ريتشارد بامتنان :

- هذا قول لطيف منك ..

- تستطيع ان تعتمد علي يا سيدي ، ما كنت لأخذل مستر برنتيس قط .. ما كنت لأتخلى عنها ابداً خصوصاً وهي على اهبة المتاعب !

هتف ريتشارد في انزعاج :

- المتاعب ؟ ماذا تعنين بذلك ؟

ردت أديث :

- لم يطلب احد نصيحتي من قبل ، وانا لست بالتي تعطي النصيحة

بدون طلب ، ولكن ها هو رأيي ، لو ان الآنسة سارة عادة لتجدكا زوجا وزوجة ، فإن ذلك كان يكون افضل للجميع .

وقبل ان يجيب ريتشارد رن جرس الباب فجأه ..

وقبل ان تتحرك اديث رن الجرس مره اخرى ، ثم استمر الرنين بدون انقطاع ..

قالت اديث باسمة مشيرة إلى الباب :

انا اعلم ايضا من يدق الجرس بهذه الطريقة ؟

وسارت حتى وصلت إلى الباب الخارجي ، وعند ذلك ترامت إلى اسماع ريتشارد اصوات تضحك وتتكلم بسرعة !

صاح صوت فتاة :

- اديث ايتها العجوز العزيزه اين ماما ؟ هيا يا جير .. ضع ادوات الانزلاق في المطبخ .

وصاح صوت الوصيفة :

- ليس في مطبخي بكل تأكيد ؟

وصاح صوت الفتاة :

- ولكن اين ماما ؟

ثم دخلت سارة الغرفة ..

كانت فتاة سمراء جميلة ، وكانت مفعمة بالشباب والحيوية لدرجة أثارت دهشة ريتشارد كولدفيلد .

كان قد رأى صوراً فوتوغرافيـــة لسارة من قبل ، ولكن الصور

الفوتوغرافية تعكس الشكل ، ولكنها لا تعكس الروح .

وكان ريتشارد يتصور سارة نسخة شابة من أمها ، ولكنها كانت شخصاً مختلف تماماً . .

كانت كتلة من الشباب والأنوثة ، كان مجرد وجودهـــا يضفي على المكان روحاً غريبة !

صاحت :

— أوه . . ما أجمل زهور التوليب هذه ، إن لها رائحة الليمون الطازج الذي أشعر فيه بوجود الربيع .

وعند ذلك وقع نظرها على ريتشارد .

قال ريتشارد بسرعة :

— أنا ريتشارد كولدفيلد .

صافحته بأدب ثم سألته :

— هل أنت في انتظار ماما ؟

قال ريتشارد :

— أخشى إنها ذهبت إلى المحطة لاستقبالك منذ دقائق قليلة ، منذ خمس دقائق بالتحديد .

صاحت سارة :

— لقد تأخرت كعادتها ، لماذا لم تحرص أديث على أن تجعلها تحافظ على الوقت ؟ أديث أين أنت ؟

قال ريتشارد :

— لقد توقفت ساعتها ..

أجابت دون اكتراث .

— حقاً .. جيري .. أين أنت يا جيري ؟

ودخل الغرفة ، في هذه اللحظة ، شاب ذو وجه جميل وهو يحمل حقيبة سفر في يده .

قال جيري ساخراً :

خادمك المطيع جيري ، أين تريدين أن أضع حقيبتك ؟ لماذا لا يوجد حمالون في هذه المنازل ؟

أجابت ضاحكة :

— هناك حمالون كثيرون ، ولكنهم يختفون عندما يصل أحد ومعه حقيبة سفر ، خذ الحقيبة إلى حجرتي يا جيري ، أوه .. هذا هو مستر جيري ليولد يا مستر .. مستر !

قال ريتشارد :

— كولدفيلد ، ريتشارد كولدفيلد .

دخلت أديث الغرفة ، فعانقتها سارة وقالت :

— ما أسعدني برؤية وجهك المتجهم العزيز ..

هتفت أديث في كبرياء :

— وجهي المتجهم حقاً .. هذا كثير ، وأرجوك ألا تقبليني يا مس برنتيس من فضلك .

أجابت ضاحكة :

- لا تتظاهري بالغضب أيتها الماكرة ، أنت تعرفين أنك سعيدة لعودتي .. ربما ، ما انظف الشقة يا اديث ، كل شيء كما عهدته قبل سفري .. لا فقد تغير مكان المكتب ، والكنبة أيضاً .

- والدتك هي التي أمرت بهذا التغيير ، لأنه يجعل الغرفة أكثر اتساعاً .

قالت سارة في ضيق :

- لا لا . أنا اريد كل شيء كما كان ! جيري .. جيري !

دخل جيري الغرفة مسرعاً وهو يقول :

- ماذا وراءك الآن ؟

ولكن سارة كانت قد شرعت في نقل المكتب .. وكان ريتشارد يساعدها !

قال جيري لريتشارد :

- لا تتعب نفسك معها يا سيدي ، هذا هو عملي ، أين تريدين المكتب يا سارة ؟

ردت سارة :

- حيث كان دائماً ، هناك ؟

تمت عملية التغيير وتنفست سارة الصعداء وقالت :

- هذا أفضل بكثير !

قال جيري وهو ينظر إلى الغرفة بعين الناقد :

- لا أعتقد ذلك ؟

تمتمت في عناد :

ـ ولكني أرى أنه أفضل بكثير ، أنا احب ان يبقى كل شيء في المنزل كما هو ، وإلا فإنه لا يعود منزلاً ، أين الوسادة التي عليها رسوم الطيور يا أديث ؟

اجابت الوصيفة :

ـ ارسلناها للتنظيف ؟

تمتمت سارة :

ـ حسناً .. سوف أذهب الآن لأرى حجرتي ، جيري جهز لنـــا بعض الشراب ، أنت تعرف مكان كل شيء .

ثم خرجت ..

قال جيري لريتشارد :

ـ ماذا تحب أن تشرب يا مستر كولدفيلد ؟

ولكن ريتشارد قال في حدة مفاجئة :

ـ لا شيء من أجلي يا مستر ليولد ، سوف انصرف ؟

سأله جيري :

ـ الن تنتظر عودة مسز برنتيس ؟ من المؤكد أنها ستكون هنا سريعاً عندما تكتشف انها وصلت بعد وصول القطار .

قال ريتشارد :

لا .. شكراً لك .. ارجو ان تبلغ مسز برنتيس بأني سأحافظ على موعد الغد ..

ثم أحنى رأسه تحية له وخرج ..

وترامى اليه وهو يعبر الصالة صوت سارة وهي تتحدث إلى الوصيفة

بسرعة فائقة

فكر انه من الأفضل حقاً ان ينصرف ..

فقد ازعجه انه لم يجد سارة كما تخيلها . كان يتخيلهـا طفلة واقعة تحت تأثير حب امها الزائد لها .

حتى هذه اللحظة كانت سارة اسماً مجرداً ، ولكنها الآن حقيقـة واقعـــة .

الفصل السادس

الازمـة

عادت سارة إلى الغرفة وهي تحبك حول جسمها روبا منزليا انيقاً اظهر قدها الرشيق .

قالت وهي تدخل الغرفة :

– كان لا بد أن اتخلص من ملابس السفر ، إني في حـــاجة قوية لحمام .. ما اشد قذارة القطارات ، هل جهزت شراباً لي يا جيري ؟

ناولها جيري كأسها ..

– شكراً لك يا جيري ، هل ذهب ذلك الرجل ؟ حمداً لله ؟

سألها جيري :

– من هو ؟

ضحكت سارة وقالت :

– لم اره قط في حياتي ، لا بد انه واحد من المعجبين تماما !

دخلت اديث الغرفة لتزيح الستائر ، وسألتهـا سارة من كان ذلك

الشخص يا اديث ؟

— إنه صديق لوالدتك ..

قالت في مرح :

— من حسن الحظ إني عدت في الوقت المناسب كي اشرف على نوع الأصدقاء الذين تختارهم ماما .

نظرت اليها الوصيفة في امعان ثم قالت :

— ألم يعجبك ؟

قالت سارة :

— لا لم يعجبني .

عند ذلك غمغمت الوصيفة بجملة غير مفهومة ، ثم غادرت الغرفة !

سألت باسمة :

— ماذا قالت اديث ؟

اجاب جيري :

— اعتقد أنها قالت « هذا شيء مؤسف » !

— حقاً يا له من كلام غريب ، ولكن لماذا تأخرت ماما هكذا ؟ لماذا هي متخبطة بهذا الشكل ؟

— لا اظن إن والدتك يمكن ان توصف بأنها متخبطة !

— لقد كان لطيفاً منك يا جيري ان تحضر لملاقاتي في المحطة ، إني اسفة لأني لم اكتب اليك من سويسرا ، كيف نجحت في الخروج من عملك وسط النهار هكذا ؟

لم يجب جيري في الحال ، فكر قليلاً ، واخيراً قال متظاهراً بعدم

الاكتراث :

- لم يكن خروجي شيئا صعبا نظراً للظروف !

اعتدلت في جلستها بجدة ، ونظرت اليه كأنما تقرأ في وجهه ما يخفيه ، وسألته :

- هيا يا جيري .. اخبرني ماذا حدث ؟

- لم يحدث شيء .. لم تسر الأمور على مـا يرام ، هذا كل ما هنالك .

قالت سارة في لوم :

- لقد وعدتني بأن تكون صبوراً ، وأن تبذل جهدك في العمل ؟

اكفهر وجه جيري وتمتم :

- اعرف ذلك يا عزيزتي ولكنك لا تستطيعي ان تتصوري كيف تسير الأمور في هـذا المكتب ، يا إلهي .. فقد عـدت إلى الوطن من جحيم الحرب في كوريا متصورا انني سأجد فردوسا في انجلـترا . ولكن مـا اشد خيبة املي ، كان الزملاء في كوريا اشخاص مهذبين على الأقل ، أما مكتب عمي لوك الذي أعمل فيه فهو قفص بارد ، وعمي لوك نفسه شخص لا يطاق ، شخص سمين ذو عينين ضيقتين مثل عيني الخنزير ، وهو يتكلم بهذه الطريقة .

ثم شرع جيري يقلد عمه :

« أنا سعيد لعودتك من كوريا يا بني ، ارجو ان تكون قد شبعت من هذه المغامرات ، وان تستقر في مكتبي وتبدأ حياتك العملية ، هنـاك مستقبل باهر لك في مكتبي إذا كنت مخلصا ونشيطا ، وستبدأ طبعا من

القاع . هذا هو شعاري ، لا مجاملات ، تكفيك النزهة التي نعمت بها في كوريا ، والآن إلى العمل في المكتب في جد وحماس ».

وزفر جيري في ضيق ثم قال :

– النزهة التي نعمت بها في كوريا .. إنه يسميها نزهة .. ذلك الخنزير الغبي ، كم أتمنى لو إني أراه أسيراً لأحـد الجنود الصينيين ، هو وهؤلاء الرأسماليون الرجعيون الذين يجلسون خلف المكاتب الفخمة ، ولا يفعلون شيئاً اكثر من جمع المال والمال والمال ..

قالت سارة في ضيق :

– أوه .. هدىء نفسك يا جيري بحق السماء ، إن عمك رجل ينقصه الخيال ، هذا كل ما هناك ولا ادري ما يغضبك ، فقد قلت بنفسك انك تريد ان تجد وظيفة وان تدخر مالاً .. قد يكون العمل في مكتب عمك شيئاً بغيضا ، ولكن ليس أمام المضطر أن يختار ، اليس كذلك ؟ يجب ان تحمد حظك لأن لك عما غنياً في لندن .. كثير من الناس يتمنون ان يكون لهم حظا مثل حظك .

صاح جيري :

– ولماذا صار عمي غنياً ؟ لأنه يسبح في الأموال التي كان يجب ان تؤول اليّ لا اليه ، الأموال التي تركها له جدي ولم يتركها لوالدي

– دعنا من كل هذا .. لو إن جدك ترك المال لوالدك لنفذ قبل أن يصل اليك ، ووجدت نفسك صفر اليدين .

– ولكن هذه ليست عدالة ، يجب ان تعترفي بذلك !

اجابت سارة متفلسفة :

- لا توجد عدالة في هذه الدنيا يا جيري ، وانت تعلم ذلك ، يجب أن تكف عن عادة الشكوى من الظلم ومن سوء الحظ .

قال جيري في امتعاض :

- انت لا تتعاطفين مع ظروفي ؟

- لا .. لأني افضل الصراحة دائما ، اعتقد انك يجب أن تختار واحداً من موقفين .. إما ان تستقيل من هذا العمل الذي لا تحبه ، وإما أن تبقى فيه وتخلص له بدون تذمر أو شكوى ، بل تسبح بحمد الله ، أناء الليل وأطراف النهار ، لأنك تعمل في مكتب عمك الذي يشبه الخنزير كما تقول أه .. اعتقد ان ماما قد وصلت .

فتحت آن باب الشقة ، ثم اسرعت إلى الداخل وهي تهتف :

- ابنتي .. حبيبتي !

صاحت سارة :

- عزيزتي ماما .. اخيرا !

تعانقت الأم والابنة عناقا حارا ، ثم سألت سارة :

- ماذا حدث لك ؟

قالت الأم وعيناها مغرورقتان بالدموع :

- لقد توقفت ساعتي الحمقاء .

- لقد وجدت جيري في انتظاري بالمحطة .

تنبهت آن إلى وجود جيري ، فتظاهرت بالسرور لرؤيته ، ولو أنها كانت ترجو ان تكون ابنتها قد نسيته تماما .

ردت الابنة وهي تتأمل امها باعجاب :

- دعيني أتأملك يا ماما .. كم تبدين أنيقة ورشيقة .. هذه قبعة جديدة البس كذلك ؟ ما اجملك يا امي :

ردت آن في حب

- بل ما اجملك انت يا ابنتي ، وكم لوحت الشمس بشرتك ؟

- شمس الثلوج هي التي فعلت ذلك ، وأرى إني خيبت امل اديث عندما عدت إلى البيت سليمة ، بدون ذراع مكسورة .. او ساق في الجبس .

ردت الوصيفة التي دخلت تحمل صينية الشاي والبسكويت :

- لقد أحضرت فناجين للجميع ، مع إني أعتقد أن الآنسة سارة والمستر ليولد لن يشربا الشاي لأنهما كما أرى يشربان الجن .

- ما أعظم الطريقة التي تتحدثين بها يا اديث ، على فكرة يا ماما ، كان هنا صديق في انتظارك . اسمه مستر (لا أدري) . من هو يا ماما ؟

قالت أديث لآن :

- لقد انصرف مستر كولدفيلد يا سيدتي وقال إنه سوف يحضر غداً حسب الميعاد المتفق عليه !

هتفت سارة :

- من هو كولدفيلد هذا ؟ ولماذا يحضر غداً ؟ أنا واثقة إننا لا نريد أن نراه مرة أخرى !

قالت برنتيس بسرعة :

- هلا تناولت كأساً أخرى يا جيري ؟

ـ شكراً لك يا مسز برنتيس ، في الحقيقة لا بد أن انصرف الآن ، وداعاً يا سارة

صحبته سارة إلى باب الشقة ..

سألها :

ـ ما رأيك في الذهاب إلى السينما معاً هذا المساء ؟ هناك فيلم جيد في سينما الأكاديمية .

ـ هذه فكرة بديعة يا جيري ، ولكني أعتقد أنه يجب ان اقضي ليلتي الأولى مع أمي .. سوف تحزن كثيراً إذا رأتني اخرج بمجرد عودتي ..

ـ أنت ابنة عظيمة !

ـ وماما أم عظيمة ايضاً .

ـ طبعاً .. أعرف ذلك جيداً .

ـ صحيح إنها تسأل أسئلة كثيرة ، ولكنها عموماً الأمهات أم عاقلة اسمع يا جيري .. سأبقى مع أمي ، ولكن إذا وجدت الظرف ملائماً للخروج فسأتصل بك ..

وعلى هذا افترقا

* * *

عادت سارة إلى غرفة الاستقبال ، وبدأت تقضم قطعة من البسكويت ، قالت :

ــ مــا أبرع اديث في صنع البسكويت .. لا ادري من اين تحصل على المواد التي تصنعه منها ، والآن يا ماما . حدثيني بما كنت تفعلين أثنــاء غيابي في سويسرا .. هل كنت تخرجين كثيراً مع الكولونيل غرانت ؟ هل قضيت وقتاً طيباً ؟

قالت في تردد :

ـ لا . نعم .. تقريباً !

نظرت اليها سارة في دهشة وقالت :

ــ ماما .. هل حدث لك شيء ؟

ـ شيء ؟ لا .. لماذا ؟

ضحكت سارة وقالت :

ــ على وجهك علامات غريبة !

ضحكت آن في عصبية وتمتمت :

ـ حقاً ؟

قالت سارة وهي تمسك بكتفي أمها :

ـ تماماً . هناك شيء .. هيا .. اخبريني . مهما يكن امراً فظيعاً فسوف أتقبله !

افلتت آن من يدي ابنتها ثم ردت في اضطراب :

ـ لم يحدث شيء يا عزيزتي .. أو على الأقل .. أوه . عزيزتي سارة يجب أن تتأكدي إن ذلك لن يحدث تغييرا لما بنيت ، سيبقى كل شيء كما هو ، فقط !

ثم توقفت الأم عن الحديث عاجزة عن الكلام ، قائلة لنفسها : يا لي

من جبانة .. لماذا لا أستطيع الحديث مع ابنتي ؟

أما الابنة فإنها ظلت تحدق في وجه امها ، واخيرا افتر ثغرها عن ابتسامة سرور صافية ، هتفت .

ـ أعتقد .. هيا يا ماما . هل أنت تحاولين التلطف في اخباري بأنك على وشك الزواج ؟

تنهدت الأم من أعماقها وصاحت :

ـ اوه .. عزيزتي .. كيف خمنت ؟

ولكن سارة احتضنتها في وله وردت :

ـ لم يكن صعبا علي اكتشاف ذلك ، لم أر في حياتي احدا في مثل هذا الحرج ، ماما .. هل تتصورين ان زواجك يضايقني ؟

ـ هذا حقاً ما تصورته .. ألا يضايقك زواجي ؟

اجابت الابنة في لهجة جاده بدت معها اكبر من سنها :

ـ لا يضايقني البتة ، اعتقد إن مـــا تفعلينه هو عين الصواب ، فقد توفي بابا منذ ستة عشر عامـــا .. من حقك ان تتمتعي بشيء من الجلس قبل ان يفوت الأوان ، انت الآن تعبرين ما يسمونه بالسنوات الخطره ، وانا اعلم إن اخلاقك لا تسمح لك بعلاقة غير شرعية !

كانت الأم تنظر إلى ابنتها وهي تشعر بمدى عجزها امامها .

قالت سارة تؤكد ما سبق ان قالته :

ـ نعم يا أمي .. معك انت لا بد ان يكون الأمر زواجا ؟

ثم أخذت تنظر إلى امها من اليمين واليسار فاحصة ، قائلة :

ـ أنت ما تزالين جميلة ، ذلك لأن بشرتك رقيقة ، ولكن يا مامـا

يحسن ان تضعي رموشا صناعية .

قالت الأم في هدوء :

- انا راضية عن رموشي كما هي ؟

قالت سارة بسرعة :

- اسفة يا ماما . لم اقصد ان اعيب شيئا فيك ، الحقيقة انك رائعة الجمال ، وأنا مندهشة لأنك لم تتزوجي حتى الآن ، من هو الشخص المحظوظ على فكرة ؟ انتظري .. دعيني أخمن ، لا بد إنه واحد من ثلاثـــة .. الكولونيـــل جرانت ، او البروفيسور جودفري فين ، او ذاك الصديق البولندى صاحب الاسم الذي لا يمكن نطقه ، ولكني ارجح انه الكولونيل جرانت ، فقد كان يطاردك منذ سنوات .

قالت الأم في هدوء .

- ليس الكولونيل جرانت يا ابنتي . إنه ريتشارد كولدفيلد .

- من هو ريتشارد كولدفيلد .. ماما ليس ذلك الرجـل الذي كان هنا بحق السماء ..

أومأت الأم برأسها دون ان تجيب !

- ولكن .. يا ماما كيف توافقين على الزواج من ذاك الرجل ، إنه ثقيل الظل !

ردت الأم في صرامة :

- إنه ليس ثقيل الظل ؟

- ولكن يا مـــاما ، من المؤكد انك تستطيعين العثور على زوج افضل من هذا

ـ سارة . أنت لا تعرفين ماذا تقولين .. أنا .. أنا مشغوفة جداً بريتشارد كولدفيلد .

أجابت سارة وعلى وجهها علامات عدم التصديق :

ـ مشغوفة به ؟ هل تعنين أنك تحبينه ؟ تحبينه فعلاً ؟

أومأت آن برأسها .

هزت سارة رأسها وتمتمت :

ـ أنا لا أستطيع ان اتصور هذا !

قالت الأم في لهفة :

ـ ولكنك رأيت ريتشارد لحظة فقط ، وأنا واثقة أنك ستعجبين به عندما تعرفينه اكثر .

ـ إنه يبدو شخص فظ ..

تنهدت وأجابت :

ـ هذا بسبب خجله الشديد !

ردت سارة ببطء :

ـ لك ما تشائين يا ماما .. إنها « جنازتك أنت » كما يقول المثل .

صمتت الأم وابنتها لحظات ، وكانت كلتاهما لا تدري ماذا تقول .

واخيراً قطعت سارة الصمت قائلة :

ـ في الحقيقة يا أمي انت في حـــاجة إلى من يهتم بشؤونك ويرشدك في الحياه مـــا كدت اتركك ثلاثة أسابيع حتى القيت بنفسك في هذه الحماقة .

صاحت الأم في استياء شديد :

- سارة .. هذا قول قاس جداً !

- اسفة يا ماما ، ولكنك تعرفين إني اؤمن بالصراحة المطلقة .

- لا أوافقك على هذا المبدأ ..

قالت الابنة دون ان تتأثر بغضب أمها :

- منذ متى بدأت هذه الحكاية ؟

ضحكت آن وأجابت :

- بحق السماء يا ابنتي ، انت تتكلمين كأنك أب محافظ في رواية قديمة فقد قابلت ريتشارد منذ أسابيع قليلة .

سألت سارة :

- اين كان هذا اللقاء ؟

أجابت برنتيس بصوت خافت :

- في حفل العشاء الذي اقامه الكولونيل جرانت ، إن ريتشارد عائد حديثاً من بورما .

- هل عنده رأس مال ؟

ردت برنتيس ساخرة :

- عنده رأس مال مستقل ، وهو قادر تماماً على إعالتي ، وهو أيضاً موظف في شركة (اخوان هيلنز) ، وهي شركة كبيرة محترمة ، والآن كفى يا سارة ، كأنك الأم وأنا الابنة .

قالت سارة في جدية تامة :

- قلت لك أنك محتاجة إلى من يرشدك إلى الصواب ، من الواضح أنك عاجزة تماماً عن العناية بنفسك .. إني أحبك كثيراً ، ولا أريدك

أن ترتكبي حماقة من أي نوع .. وذاك الرجل هـل هو اعزب ، ام مطلق ام ارمل ؟

اجابت آن بتمثل :

– لقد فقد ريتشارد زوجته منذ سنوات ، مـاتت المسكينة وهي تضع طفلها الأول ، ومات الطفل أيضاً .

تنهدت سارة وهزت رأسها قائلة ·

– الآن ادرك كيف نجح في التأثير عليك ، انت تتأثرين دائمـاً بهذه القصص الحزينة !

صاحت آن :

– كفاك تخريفاً يا ابنتي ..

استمرت سارة في اسئلتها :

– هل له اخوة ، او اخوات ، او أم ؟

– لا .. لا اعتقد إن له اقرباء على الاطلاق .

قالت سارة ضاحكة :

– هذه حسنة .. هل له منزل . اين تنويان الاقامة ؟

قالت آن بعصبية :

– هنا طبعاً ، المنزل كبير ، وريتشارد عمله في المدينة ، ارجو الا يضايقك هذا الترتيب يا ابنتي ..

– اوه .. لست انا التي ستتضايق ، إني افكر فيك

– هذا لطف منك يا حبيبتي ، ولكن تأكدي انني اعرف صالحي تماماً .. انا واثقة إني وريتشارد سنسعد معاً .

ـ متى تنويان ان تعقدا الزواج ؟

ـ في بحر ثلاثة اسابيع ..

هتفت الابنة في ارتياع

ـ ثلاثة اسابيع ؟ اوه .. هذه مدة قصيرة جداً ، لا يمكن ان تتزوجا بهذه السرعة .

ـ لا ارى حكمة في الانتظار .

ردت سارة متوسلة :

ـ ارجوك يا أمي . أجلي عقد هذا الزواج قليلاً .. امنحيني بعض الوقت كي . كي أتعود على هـــذا التغيير . أرجوك .. أرجوك يا ماما ..

قالت برنتيس في ضيق :

ـ لا أدري .. سوف نرى .

ـ شهر ونصف مثلاً . شهر ونصف على الأقل !

ـ إننا لم نحدد تاريخاً للزواج ، على العموم ريتشارد سيتغدى معنا غداً .. سارة أرجو أن تكوني لطيفة معه ..

ـ طبعاً يا ماما . ماذا تظنين فيّ ؟

قالت برنتيس في ارتياح :

ـ شكراً لك يا عزيزتي !

ـ ابتسمي بالله يا ماما .. لا داعي للقلق بخصوص أي شيء ..

قالت برنتيس في غير اقتناع :

ـ أنا واثقة إنك وريتشارد ستنسجمان معاً

لم ترد سارة بشيء .

قالت آن في غيظ مكتوم :

ـ تستطيعين على الأقل ان تحاولي ؟

ردت سارة بعد تردد قصير :

ـ قلت لك انه لا موجب للقلق ، مامـــا هل تحبين أن أبقى معك هذا المساء ؟

ـ لماذا ؟ هل تريدين الخروج ؟

ـ كنت افكر بالخروج ، ولكني اكره أن اتركك بمفردك ..

ابتسمت برنتيس ، وهي تشعر بالرابطة القديمة بينها وبين ابنتهـــا تعود .. قالت .

ـ أوه ..

ثم قـــالت :

ـ أوه .. لن أكون وحيدة .. في الواقع لقـــد دعتني لورا ويستابل إلى الاستماع إلى محاضرة لها

لم يكن في نية برنتيس ان تشهد المحاضرة من قبل .

وكانت تستطيع أن تتصل بريتشارد كولدفيلد وتخرج معـــه ، ولكنها خجلت في أعماقهـــا من هذه الفكرة وكأنها ترتكب إثمـاً .

لعله من الأفضل أن تنتظر حتى يتم لقـــاء ريتشارد بابنتها سارة في الغـــد ..

قالت سارة :

ـ حسناً .. اذهبي انت إلى لورا ، يا امي .. وسوف اتصـــل

بجيري تليفونيا . .

ـ أوه . . هل هو جيري الذي تنوين الخروج معه ؟

قالت سارة في تحد :

ـ نعم . . لم لا ؟

ولكن برنتيس لم تواجه التحدي ، وقالت في تخاذل :

ـ كنت أتساءل . . هذا كل ما في الأمر ؟

الفصل السابع

جيري ليولد

- ١ -

– جيري ..

– نعم يا سارة .

– جيري .. أنا لا اشعر برغبة في مشاهدة هذا الفيلم ، هلا ذهبنا إلى مكان اخر لنجلس ونتحدث ؟

– طبعاً يا عزيزتي ، هل نذهب لتناول طعامنا أولاً ؟

– لا .. لا استطيع ، فقد الخمتني اديث بالطعام قبل خروجي

– دعينا إذاً نذهب لنشرب شيئاً .

واختلس منها جيري نظرة سريعة ليرى ما يزعجها ، ولكن سارة لم تتكلم إلا بعد ان جلسا معاً في مكان هادىء ، وأمامهما كأسان

مليئان بالشراب .

– جيري .. ماما ستتزوج مرة ثانية .

قال جيري في دهشة حقيقية :

– يا إلهي .. ألم يكن عندك فكرة من قبل عن هذا الموضوع ؟

– كيف كان لي أن أعلم ؟ فقد قابلته مـــاما بعد سفري إلى سويسرا .

– غرام خاطف إذاً .

– خاطف اكثر مما ينبغي ، أعتقد ان ماما فقدت صوابها .

– من هو الزوج المرتقب ؟

– ذاك الرجل الذي كان في المنزل ساعة وصولي .. لا اذكر اسمــه على التحديد !

– آه .. ذاك الرجل !

– نعم ألا ترى معي يا جيري انه رجل مقيت للغاية ؟

– لم التق بالاً اليه في الواقع ، ولكنه بدا لي شخصاً عادياً جداً !

قالت سارة في عناد :

– إنه لا يناسب ماما على الاطلاق .

– اليست هي خير من يحكم على هذا ؟

– لا .. ليست هي خير من يحكم على هذا .. مامـا المسانة ضعيفة ، إنها تتألم من اجل الناس ، إنها بحاجة إلى من يرشدها إلى الصواب .

قال جيري ضاحكاً :

– اعتقد إنها توافقك على هذا ، وإنهـا اختارت الذي يرشدها إلى

الصواب .

ـ لا تضحك يا جيري . الموضوع خطير جداً . ذلك الرجل غير جدير تماما .

رد جيري بعدم اكتراث .

ـ هذا شأنها هي ؟

ـ لا . يجب ان اشرف على شؤونها . أنا اعرف الحياة اكثر مما تعرفها هي ، وانا افوقها في قوة الشكيمة .

فكر جيري برهة ثم قال .

ـ على كل حال ، إذا كانت امك مصممة على الزواج !

قاطعته بسرعة :

ـ أوه . انا لا اعترض على ذلك ، ماما يجب ان تتزوج مجدداً ، هذا شيء لا شك فيه ، فقد عانت سنوات من الحرمان الجنسي ، ولكنها قطعا يجب ان تختار زوجا غير ذاك الرجل البغيض ؟

ـ الا تظنين انها

ثم توقف عن الكلام .

قالت سارة تستحثه على الكلام

ـ الا اظن ماذا ؟

قال جيري في عدم اكتراث .

ـ الا تظنين انك ايضا قد تشعرين بمثل ذاك الشعور نحو شخص ما ؟ مهما يكن فأنت لا تستطيعين ان تقطعي بأن ذاك الرجل لا يناسب والدتك . انت لم تبادليه اكثر من كلمتين ، اليس من الجائز ان سبب

سخطك عليه هو انك .

ثم توقف لحظات قبل ان يستجمع شجاعته ويقول .

– انك غيورة ؟

صاحت سارة :

– غيورة ؟ أنا ؟ تعني إني لا أريد ان يكون لي زوج أم ؟ يا عزيزي جيري المسكين ، ألم اقل لك مراراً من قبل ، انني اشعر بأن ماما يجب أن تتزوج من جديد ؟

– نعم .. ولكن هناك فرق بين الكلام ، وبين الواقع .

قالت سارة باصرار :

– انا لست صاحبة طبيعة غيورة ، كل ما يهمني هو ان احافظ على سعادة امي وهنائها !

قال جيري في حدة مفاجئة :

– لو كنت مكانك لما حاولت اللعب بحياة الناس .

– ولكنها امي !

– نعم . ولكن لعلها تعلم ما تريده فعلا .

– امي ضعيفة الشخصية ، سهلة الانقياد .

– على كل حال ليس هناك شيء تستطيعين ان تفعليه .

ثم صمت جيري وهو يفكر ان سارة منزعجة من اجل لا شيء ، وإنها تصنع ضجة بدون مبرر ، فضلا عن إنه كان قد بدأ يشعر بالضجر من الحديث عن مسز برنتيس ومتاعبها . كان يريد ان يتحدث عن نفسه .

قال فجأه :

- انا افكر بالاستقالة ؟

هتفت سارة :

- الاستقالة من العمل في مكتب عمك ؟ اوه .. جيري !

- لم اعد استطيع ان احمل ، لا تستطيعين ان تتصوري الضجة التي يحدثها عمي كلما تأخرت ربع ساعة في الصباح .

- ولكن هذا عمل في مكتب يا جيري ، يجب ان تحافظ على المواعيد ..

- إنه مكتب لعين ، لا احد يفكر فيه إلا في المال .. المال فقط ، صباحا وظهراً وليلا .

- ولكن إذا تركت هـذا المكتب يا جيري ، فماذا تستطيع ان تعمل ؟

قال بثقة غريبة :

- سوف اجد عملا ما .. عملا يناسب مواهبي !

قالت في شك :

- ولكنك حاولت كثيراً من قبل يا جيري ، ولم تنجح .

- تقصدين إني اتعرض للفصل في كل مرة ؟ حسنا .. لن انتظر الفصل هذه المرة ، سأستقيل .

قالت في حزن :

- هل أنت واثق من تفكيرك ؟ مهما يكن ، فالمدير هو عمك وهو رجل مليونير !

قال جيري ساخراً .

- وإذا أحسنت التصرف فإنه قد يترك لي ثروة ؟ اليس كذلك هو ما تقصدينه ؟

- حسناً . طالما سمعتك تشكو من أن جدك ، ماذا كان اسمه ، لم يترك الثروة لوالدك .

- لو كان جدي رجلا عميق الاحساس بالروابط العـائلية ، لترك نصف ثروته على الأقل لوالدي ، وما كنت لأتعرض لهذه الاهانات . والانتقال من وظيفة إلى وظيفة ، هذه هي الحقيقة ، إن هذا البلد بلد حقير وأنا افكر في الهجرة

- تهاجر ؟ إلى أين ؟

قال في شرود :

- لا أدري ، إلى أي مكان يكون فيه الناس أكثر انسانية

ثم صمت الاثنان وهما يتصوران ذاك البلد الذي يكون فيه النـاس أكثر انسانية .

ولما كانت سارة عملية أكثر من جيري ، فإنهـا هبطت بسرعة من سماء الخيال إلى أرض الواقع .

- هل تستطيع أن تقوم بأي شيء بدون رأسمـال ؟ هل عندك رأسمـال ؟

- ولا بنس أنت تعرفين هذا جيداً ، ولكن لا بد أن هنـاك يمكن القيام به بدون رأسمال !

- دعنا من رأسمال ، ما هي مواهبك على التحديد .

فكر جيري لحظة وأخذ يستعرض مواهبه المزعومة ، فلم يجد شيئاً قال في ضيق .

- هل يجب أن تثبطي همتي بهذا الشكل ؟

- أنا اسفة . ولكني أقصد إنك لا تتقن أي حرفة !

- عندي مواهب طبيعية في الرئاسة ، وفي الحيـــاة الطليقة ، في الأماكن الخلوية .

تنهدت سارة وتمتمت :

- أوه . جيري !

- مـــا بك ؟

- لا أدري ، الحياة تبدو معقدة للغاية ، فقد غيرت الحروب المتتالية الأمور كثيراً .

وافقها جيري في اعماقه ، ورانت على الاثنين سحـابة من الكآبة والحزن

وبعد برهة تمتم : إنه سوف يتنـــازل ويعطي عمه فرصة أخرى لاصلاح الأمور ..

صفقت سارة لهذا القرار ثم قالت :

- أعتقد أنه يحسن أن اعود إلى البيت الآن ، لا شك أن مـامـا عادت من المحاضرة .

- ماذا كان موضوع المحاضرة ؟

- أعتقد إن عنوانهـا هو (ما هو مصير البشر ؟ ولماذا ؟) ، شيء مثـل هذا .

ثم نهضت وقالت :

- شكراً لك ياصبري ، فقد ساعدتني كثيراً .

رد راعظا :

- حاولي ان تفهمي موقف امك ياسارة ، إذا كانت امك ذلك الشخص ، وتعتقد أنها ستسعد معه فهذا هو المهم .

- نعم . إذا كانت ماما سوف تسعد معه ، فهذا هو المهم .

- وعلى العموم فستتزوجين يوماً ما !

قال ذلك وتحاشى أن ينظر اليها ..

اما سارة فإنها تشاغلت بالنظر إلى حقيبتها .

همست :

- نعم . يوماً ما ربما ، لست متلهفة الآن !

ولكن سحابة من عواطف الشباب الحـــارة حلقت فوقها وأفعمت وجدانيها بشعور دافيء سعيد .

* * *

- ٢ -

شعرت آن بارتياح عميق اثناء تناول الغداء في اليوم التالي ..

كانت سارة تتصرف بشكل بديع ، وكانت تتحدث مع ريتشارد بشكل طبيعي ، لا تكلف فيه ..

وشعرت آن بالفخر لأن هذه الشابة الجميلة ابنتها ، بوجهها الجميل وأدبها الجم .

وتنهدت من الأعماق ، كان يجب ان تعلم إنها تستطيع ان تعتمد على ابنتها . نعم ، ما كانت ابنتها لتخذلها .

شيء واحد كان ينغص صفو آن . ريتشارد ..

كان يتصرف في عصبية ، وكان يحاول ان يبدو طبيعياً .. ولكن محاولاته هذه كانت تزيد في عصبيته ، ورغماً عنه كان يبدو مغروراً متعاظماً ، بل إن بساطة سارة ، وبساطة تصرفاتها كانت تزيد عصبيته واضطرابه ، وتظهر الفرق الشديد بين سلوكه وسلوكها .

وكانت آن تتألم لحالته لأنها تعلم جيداً إنه انسان طيب بسيط .

وكانت سارة ترى اسوأ جانب في ريتشارد بعكس ما كانت ترجو آن ، وهذا في حد ذاته كان يضايقها ويجعلها عصبية ايضاً مما زاد في انزعاج ريتشارد .

وبعد انتهاء الغذاء وجلوس الثلاثة لشرب القهوة ، تظاهرت برنتيس برغبتها في أن تتكلم بالتليفون ، وتركت الاثنين معاً ..

كانت تأمل ان يتمكن ريتشارد وسارة من الوصول إلى تفـــاهم ، بدون وجودها.

أما سارة فإنها قدمت فنجـان القهوة إلى ريتشارد في احترام ، ثم جلست تشرب فنجانها ، وشرع ريتشارد يشرب قهوته وهو يتأمل سارة في حيرة .

لم تكن اظهرت اي عداء نحوه حتى الآن ، ولكنها ايضاً لم تكن اظهرت أي اهتمام به .. كان قد تمرن في منزله على ما سيقوله لها . كان ينوي ان يقول لها انه يفهم موقفها جيداً ويعطف عليها .

وانتهى من شرب القهوة ، ثم بدأ ينفذ خطته ببساطة مفتعلة جعلت الكلام يقف في حلقه قال :

ـ اسمعي ايتها الشابة .. هناك امر او اثنـــان اريد ان اتحدث معك فيهما ..

نظرت اليه سارة بوجه خــــال من اي تعبير .. وقالت في عدم اكتراث :

ـ حقـــا ؟

ـ اريدك ان تعرفي إني افهم مشاعرك جيداً .. لا بد إن الأمر كله كان صدمة لك ، فقد كنت تعيشين مع امك منذ طفولتك دون وجود شخص غريب ، ومن الطبيعي جـداً انك تكرهين أي شخص غريب يدخل بينكما . ومن الطبيعي ايضاً ان تشعري بمرارة وبشيء

من الغيرة

قالت في لطف طبيعي :

تأكد إني لا اشعر بشيء من ذلك قط ؟

كان ذلك انذاراً ، ولكن ريتشارد لم ينتبه اليه .

قال مثابرا على خطته :

– كما كنت أقول ذلك شيء طبيعي جدا .. انا لا اريد منك ان تحبيني توا ، لمجرد إني سوف اصبح زوج امك . سأتوقع منك ان تكوني باردة نحوي طالما تشائين ، وحين تنوين ان تذيبي الثلج الذي بيننا سوف تجدينني في انتظارك بأذرع مفتوحة ، المهم أن تفكري في سعادة امك !

قالت سارة بلهجة ذات مغزى :

– هذا ما افكر فيه فعلا !

– وفكري في مدى ما قامت به أمك من أجلك ، وفكري ايضاً انه قد حان دورك لتردي لها الجميل .. أنا واثق إنك تريدين سعادتها ، ويجب ان تتذكري انك سوف تتزوجين يوماً وتهجرينهـا . ايضاً لك أصدقاؤك واحلامك الخاصة ومطامحك الخاصة ، فإذا هجرت امك ولم تكن متزوجة فإنها ستكون وحيدة في هذه الدنيـا ، لذا يجب ان تضعي في اعتبارك تقديم مصلحة والدتك على مصلحتك .

ثم توقف ريتشارد عن الكلام متصورا إنه احسن الادلاء بكل مـا كان يريد أن يقوله ..

ولكن سارة فاجـأت مشاعره السعيدة هذه . بأن سألته في

أدب :

ـ هل تلقي كثيرا من الخطب العامة ؟

رد مندهشاً دون ان يفهم مرمى كلامها :

ـ لـــماذا ؟

ـ لأنك تنجح في الخطابة بكل تأكيد .

أدرك ريتشارد مغزى كلامها الجارح ، ونظر اليها في غيظ مكبوت كانت مضطجعة بارتياح ، تتأمل اظافرها الحمراء القـانية ، وأضاف ذلك اللون الأحمر غيظاً فوق غيظ ريتشارد .

تمالك اعصابه بصعوبة بالغة ، ورد محاولاً التظاهر بالمرح :

ـ لعلني اطلت عليك الحديث وضجرتك ، ولكني اردت ان الفت نظرك إلى بعض الأمور التي قد لا تعرفينها ، واحب ان اؤكد لك ان حب امك لن يقل بسبب زواجها مني .

ـ حقا ؟ ما اكرمك حين تخبرني بذلك ..

لم يعد هناك شك الآن .. هذا عداء صريح ..

ما العمل ؟

لو أن ريتشارد كف عن تمثيله ..

لو أنه قال ببساطة وصدق ..

أنا فاشل تماما يا سارة ، انا خجول وتعس ، وهذا يجعلني اقول أسوأ الأقوال ، ولكني أعبد آن .. وارجو أن تحبيني يا سارة كي تسير الأمور على ما يرام .. كان ذلك جديرا بأن يميل اليه قلبها ، لأنها في

الواقع فتاة ذات قلب كريم .

ولكن كبرياءه رفضت هذا الاذلال ..

قال بحدة :

- إن شباب هـــذا الجيل مليء بالأنانية ، ولا يفكرون إلا في أنفسهم .. يجب أن تفكري في سعادة أمك أيتها الفتاة .. من حقهـا أن تعيش ، ومن حقها أن تكون سعيدة .. إنها محتاجة إلى من يرعاها ويهتم بها .

رفعت اليه سارة عينيها ونظرت اليه نظرة قاسية ..

قالت على غير المتوقع :

- أوافقك تماماً على ما تقول ..

وفي هذه اللحظة دخلت برنتيس الغرفة !

سألت : هل ما يزال هناك قهوة لي ؟

صبت سارة قهوة في فنجان ثالث وقدمت الفنجان إلى أمها

- ها هي القهوة يا ماما ، فقد عدت في اللحظة المناسبة بعد أن انتهينا من حديثنا ..

خرجت سارة من الغرفة ، ونظرت آن إلى ريتشارد ..

كان وجهه محتقناً ..

- لقد قررت ابنتك أن تكرهني .

ردت برنتيس :

- يجب أن تكون صبوراً معها يا ريتشارد أرجوك .

تمتم بصبر :

– لا تقلقي يا عزيزتي . أنا أنوي أن اكون صبوراً معها .

– أنت تدرك طبعاً إن هذا الزواج جاء مفاجأة لها ..

– طبعاً ..

قالت آن :

– إن ابنتي في الواقع شابة كريمة العواطف نقية القلب .

لم يجب ريتشارد بشيء ..

كان رأيه في سارة انها فتاة بشعة الأخلاق ، ولكنه لم يجرؤ أن يبوح برأيه لأمها ..

قـــال :

– سوف يسير كل شيء على ما يرام .

قالت آن بتمهل :

– أنا واثقة من ذلك .. نحن محتاجان فقط للوقت !

كان كلاهما تعساً ، ولم يدر أحدهما ماذا يقول بعد ذلك .

* * *

- ٣ -

وصلت سارة إلى غرفتها وعيناها مغرورقتان بالدموع لفرط الجهد النفسي الذي بذلته أثناء حديثها مع ريتشارد

فتحت الدولاب وأخرجت بعض الملابس ونثرتها على السرير وأخذت تقلبها بين يديها وهي لا تراها .

دخلت اديث الغرفة وبنظرة واحدة أدركت حالتها ..

قالت سارة وهي تحاول أن تكتم دموعها :

- إنني اتفحص ثيابي .. لعل بعضها يحتاج إلى تنظيف .. أو ترقيع !

قالت أديث :

- لا داعي لذلك ، إنني أشرف على كل شيء !

لم تجب سارة ، فقد منعتها دموعها عن الكلام .

قالت أديث في عطف :

- لا يجب أن تتألمي هكذا .

صاحت سارة :

- إنه رحل فقط ومضيت .. كيف تستطيع ماما أن تحب ذلك الشخص ؟ أوه .. لقد تحطم كل شيء ، انهار كل شيء .. لن يعود أي شيء كما كان .

ردت اديث :

- لا لا يا مس سارة .. لا يجب أن توجعي نفسك إلى هذا الحد ، ما لا يمكن هدمه يجب التسليم به

ضحكت سارة في هستيرية وصاحت :

- دعيني بمفردي يا أديث .. دعيني بمفردي !

خرجت اديث وأغلقت الباب خلفها .

أما سارة فإنها دفنت رأسها في السرير وانخرطت تبكي في حرقة كأنها طفلة صغيرة .

كان الأسى يملؤها ويمزق جوانحها ، لم تكن ترى ضوءاً أمامها في اي اتجاه ..

بكت وهي تتأوه :

- أوه .. ماما .. ماما !.

الفصل الثامن

اشجار البرتقال

- ١ -

— أو .. لورا .. ما اسعدني برؤياك .

جلست لورا ويتستابل أمام صديقتها آن في ارتياح ..

ثم قالت :

— حسناً يا عزيزتي . كيف تجري الأحوال الآن ؟

فتنهدت آن وقالت .

- أخشى أن ابنتي قد أصبحت صعبة المراس كثيراً !

— ولكنك كنت تتوقعين هذا ، اليس كذلك ؟

كانت لورا تتكلم بمرح . ولكنها تنظر إلى صديقتها بعطف شديد . سألت

- انت تبدين ممتلئة الصحة ..

- أعرف ذلك . أنا لا أنام جيـــدا واصاب بنوبات صداع من وقت لآخر !

- لا يجب أن تتأثري إلى هذا الحد .

- من السهل ان تقولي هذا .. انت لا تتصوري مدى العذاب الذي اقاسيه ، مـــا تمر لحظة يتقابل فيها ريتشارد وابنتي حتى يدب الخلاف بينهما ؟

- إن ابنتك غيورة طبعاً

- اعتقد أن ذلك هو السبب .

- كما قلت لك من قبل ، إنك كنت تتوقعين هــذا . إن ابنتك مـــا تزال في فترة المراهقة ، وجميع الشابات في مثل سنها يكرهن أن ينصرف اهتمام أمهاتهن إلى أحد غيرهن . كان لا بد ان تؤهلي نفسك لتقبل هذا ..

- إن تصرفات ابنتي مفاجأة تامة لي .. ولكن المفاجأة الحقيقية هي تصرفات ريتشارد ، إنه يغار من ابنتي .

- سبب ذلك إنه رجل ضعيف الثقة في نفسه .. فلو كان واثقاً من نفسه لضحك من تصرفاتها . وطلب منها ان تذهب إلى الشيطان

مسحت برنتيس جبينها المرهق وقالت :

- أنا أعيش في جحيم يا لورا . إن ابنتي وريتشارد يتشاجران لأتفه الأسباب ، ثم ينظران اليّ ليريا إلى اى جانب انحاز ..

سألتها لورا .

- وإلى أي جانب تنحازين ؟

- انحاز إلى اي جانب طالما كان ذلك في امكاني ، ولكن احيانا ..

توقفت برنتيس عن الكلام ..

فقالت لورا تستحثها :

- نعم يا ان ؟

- إن ابنتي ، تعـــالج موقفها مع ريتشارد .. بشكل اذكى من معالجته له ..

- ماذا تعنين ؟

- ابنتي تتصرف دائما في أدب ، ولكنها تعلم مـا تفعل كي تثير ريتشارد .. إنها تعذبه تعذيباً بطيئاً .. رباه ، لماذا لا يحب كلاهـا الآخر ؟

- لأن هناك عداء طبيعياً بينهما ، بين الابنة وزوج الأم ، ام تظنين ان الأمر غير ذلك ؟

- اخشى انك على صواب يا لورا ..

- ما هي الخلافات التي تنشأ بينهما عادة ؟

ردت برنتيس بعصبية :

- اتفه الخلافات . مثلاً ، انك تذكرين إنني غيرت وضع الأثاث في غرفة الاستقبال ، ولكن سارة أعادت كل شيء إلى مكانه بعـد عودتها من سويسرا ..

وذات يوم اعلن ريتشارد فجأة ان له رأياً اخر في وضع الأثاث . قـال (اعتقد انك كنت تفضلين ان يكون مكان المكتب في

الناحية الأخرى يا ان ، اليس كذلك ؟) .. قلت . (كان ذلك لأني اعتقدت انه يجعل الغرفة اكثر اتساعاً) .. وعند ذلك قالت سارة : (ولكني أحب ان يظل المكتب في مكانه هذا) ..

فقال ريتشارد في لهجة غليظة : (ليس الأمر هو مـا تحبين ومـا تكرهين يا سارة . المهم هو ما تحبه امك ، وسأعيد المكتب إلى مكانه في الحال) . ثم قام حقاً وأعاد المكتب إلى موضعه ، ثم قال لي وهو يلهث : (اليس هذا ما تفضلينه يا ان ؟) ، فأجبته بالايجاب رغماً عني ، فتحول عني إلى سارة وقال بنبرة تشف : (هل عندك اعتراض يا سارة ؟

فنظرت اليه سارة بهـدوء وقـالت في أدب : (طبعـاً لا .. ولا اهمية لرأيي) .

وفي الحق يا لورا ، بالرغم من إني كنت أساند ريتشارد ، إلا إنني شعرت بالأسى من اجل سارة ، إنها تحب المنزل والأثاث ، وتكره ان يلم التغيير بشيء في المنزل ، امـا ريتشارد فـإنه لا يفهم مشاعر ابنتي اطلاقاً رباه ، إني لا ادري ماذا افعل .. لورا .. هل تعتقـدين ان الأمور ستتحسن ؟

– لا يجب ان تعتقدي اماً كاذبة !

ردت برنتيس في عتاب :

– ما أقساك يا لورا !

– ذلك افضل من التعلق بأوهام ..

– الا يشفق ريتشارد وسارة علي ؟ إني اصبحت فعلاً مريضة !

ـ لا فائدة ايضاً في الاشفاق على نفسك ..

ـ ولكني تعسة جدا ..

ـ وهما ايضاً تعيسان يا برنتيس . وجهي اشفاقك نحوهما .

تأوهت برنتيس واجابت :

ـ يا إلهي .. ما كان اسعدنا ، ريتشارد وانا قبل عودة سارة ..

رفعت لورا حاجبيها قليلا ، ثم صمتت لحظة ..

وأخيراً قالت :

ـ ما الموعد الذي حددتماه للزواج ؟

ـ الثالث عشر من مارس ..

ـ بعد أسبوعين إذاً ، لماذا اجلتما الموعد ؟

ـ لقد توسلت سارة اليّ بحجة أنها تريد أن تتعود على هذا الوضع الجديد ، فلم يسعني إلا أن أوافق على رجائها .

ـ هي ابنتك إذاً . وريتشارد . هل أزعجه التأجيل ؟

أجابت برنتيس :

ـ طبعاً . لقد غضب جداً واتهمني بأنني أدلل ابنتي أكثر مما ينبغي ، لورا .. هل أنا حقاً افسدت سارة بتدليلي لها ؟

ـ لا أعتقد ذلك ، فبالرغم من حبك الشديد لابنتك ، فـأنت لم تفسديها .. وعلى العموم ، فإن سارة كانت دائمـاً شابة حسنة التصرف .

قالت برنتيس بعد تفكير :

ـ هل تعتقدين إني يجب أن ..

ثم توقفت عن الكلام ..

ـ يجب ماذا يا آن ؟

ـ أوه . لا شيء . ولكني أشعر احيانا باني سأنهار أمام ما أقاسيه من تصرفات سارة وريتشارد ..

وفي هذه اللحظة سمعت الصديقتين صوت الباب الخارجي وهو يفتح ثم صوت خطوات سارة السريعة قادمة نحوهما

دخلت سارة الغرفة وتهللت اساريرهـا عند رؤية مس ويتستابل ، فجرت نحوها وقبلتها . ثم قالت :

ـ اوه .. لورا . لم اكن أعلم أنك هنا !

ردت ويتستابل باسمة :

ـ وكيف حال إبنتي في العماد ؟

قالت سارة في بساطة :

ـ أنا بخير ، شكراً !

نهضت برنتيس وخرجت من الغرفـة ، وهي تغمغم بجملة عن شيء تريد أن تفعله ، وتابعتها ابنتها بنظراتهـا ، ثم نظرت إلى ويتستابل واحمر وجهها

قالت ويتستابل :

ـ نعم .. لقد كانت امك تبكي منذ قليل .

ـ لست أنا الملومة على ذلك !

ـ حقاً ؟ اسمعي يا سارة .. هل تحبين امك ؟

– أنا اعبد ماما .. أنت تعلمين ذلك !

– إذاً . لماذا تعملين على تعاستها ؟

ردت سارة :

– ولكنني لا أعمل على تعاستها .. أنا لا أفعل شيئاً على الاطلاق .

– أنت تتشاجرين مع ريتشارد ، اليس كذلك ؟

قالت سارة بسخرية :

– أه . هذا . ولكن هذا شيء لا يمكن تجنبه . هـذا الشخص مقيت .. لو ان ماما تحققت من مدى ثقل ظله ، اعتقد على العموم انها ستكتشف ذلك عاجلا ام أجلا !

– أيجب أن تخططي حياة الآخرين بدلاً منهم يا عزيزتي ؟ كان المعتاد أن الآباء هم الذين يخططون حياة أبنائهم وليس العكس

قامت سارة وجلست على مسند المقعد الذي تجلس عليه لورا ، ثم قالت بلهجة من يدلي بسر :

– ولكنني قلقة جداً على ماما ، انا واثقة انهـا لن تكون سعيدة مع هذا الشخص .

قالت وبتستابل :

– هذا ليس شأنك .

– ولكنني قلقة رغماً عني ، أنا لا اريد ان ارى امي شقية قط ، إن ماما ضعيفة الارادة وفي حاجة إلى من يرعاها .

تناولت لورا يدي سارة بين يديها وضغطت عليهما بشدة ، ثم تحدثت

بصوت هادىء خطير :

– اسمعي يا عزيزتي ، نصيحتي اليك أن تأخذي حذرك .. خذي حذرك .

– ماذا تعنين ؟

ردت لورا وهي تضغط كلماتها بقوة :

- خذي حذرك من أن تسببي في ان تقدم أمك على شيء تندم عليه طوال حياتها ، إني أحذرك .. إني أشم شيئاً في الهواء .. أشم رائحة ، ضحية بشرية تقدم قرباناً .. وانا لا احب القرابين البشرية .

وقبل أن تجيب سارة بشيء دخلت اديث الغرفة ..

ثم قالت :

– لقد حضر مستر ليولد !

قفزت سارة في سرور وهتفت :

– جيري .. تعال .. هذه هي لورا ويتستابل امي في العماد .. هذا هو جيري ليولد !

تصافح الاثنان ..

ثم قال جيري للورا :

– لقد سمعتك بالأمس في الراديو يا سيدتي ، كنت تقدمين حلقة من برنامجك الممتع « كيف تعيش اليوم » وتأثرت به كثيرا . يبدو انك تعرفين اجوبة عن كل الأسئلة التي تطوف بذهن الانسان !

وردت ضاحكة :

– من السهل دائماً ان يصف الانسان طريقة صنع الكعكة ، ولكن ليس من السهل ان يصنعها ، انا اعرف ان برنامجي ممل ، وإن الناس يضجرون منه يوماً بعد يوم .

هتفت سارة :

– لا تقولي هذا يا لورا ..

ردت وبتساؤل :

– ولكنني أعني ما اقول يا طفلتي ، فقد وصلت إلى المرحلة التي تحولت فيها إلى واعظة ، وهذه خطيئة لا تغتفر ، والآن سأتركك معاً وأذهب للبحث عن امك !

*

- ٢ -

ما ان خرجت ويتستابل من الغرفة حتى صاح جيري :

— سوف اغادر انجلترا يا سارة .

نظرت اليه سارة في دهشة وقالت :

— أوه جيري .. متى ؟

قال بفرح :

— الخميس القادم .

— إلى أين ؟

— إلى جنوب إفريقيا !

صاحت سارة :

— ولكنهـــا بعيدة جدا ، ولن تعود منها قبل سنوات .. وسنوات ..

قال في خيلاء :

— ربمـــا !

— وماذا تنوي ان تعمل في جنوب إفريقيا .

— سأزرع البرتقال ، معي زميلان اخران ، وانا واثق سوف نقضي وقتا ممتعـــا ..

- اوه .. جيري ، هل لا بد من ذهابك ؟

- لقد ضقت ذرعاً بهذا البلد الذي لا يقدر المواهب ، البلد يكرهني وانا ابادله كرهاً بكره .

- وماذا عن عملك ..

- أوه .. نحن متخاصمان منذ فترة ، أما زوجته لينسا فقد كانت لطيفة معي للغاية ، أعطتني مبلغاً من المال ، ودواء الدغات الأفاعي .

- ولكن هل عندك أي خبرة بزراعة البرتقال .

- لا أعرف حتى شكل شجرة البرتقال ، ولكن نظراً لذكائي ومواهبي فسأتعلم بسرعة .

تنهدت سارة وقالت :

- سأفتقدك كثيراً يا جيري .

تجنب جيري النظر اليها ثم قال :

- أعتقد إنك ستنسيني بعد فترة ، البعيد عن العين بعيد عن القلب .

- ليس دائماً يا جيري .

نظر اليها بسرعة وقال :

- أحقاً يا سارة ؟

نظرت اليه سارة بتأمل ولم تجب ..

قال في اضطراب :

- لقد استمتعنا معاً كثيراً ، اليس كذلك ؟

- نعم ..

على فكرة الناس يربحون كثيراً من زراعة البرتقال .

– أعتقد ذلك !

قال جيري وهو يختار كلماته بعناية :

– أعتقد أن الحياة هناك أيضاً تناسب النساء .. المناخ ممتـــاز ، والخدم كثيرون

– نعم ..

ولكن لا بد أنك ستتزوجين قريباً ..

هزت رأسها وقالت :

– لا لا .. الزواج المبكر خطأ فادح ، لا اعتقد اني سأتزوج قبـل سنوات وسنوات .

قال جيري في تشاؤم :

– هذا ما تظنينه ، ولكن سيظهر لك ثعلب من هنـــا أو هناك ويجعلك تغيرين رأيك .

قالت سارة في تأكيد :

– إني ذات طبيعة باردة .

وقف الاثنان في ارتباك وهما يتحاشيان النظر أحدهما إلى الآخر . واخيراً قال في نبرات مضعضعة :

– عزيزتي سارة .. أنا مجنون بك ، هل تعرفين ذلك ؟

– حقاً ..

ودون أن يشعر كلاهما اقتربا حتى تلاصقا وتبادلا قبلة حارة . وكان جيري يتعجب في نفسه مما يجده من حرج أمام سارة ، وهو الذي خالط الكثيرات من النساء

ولكن سارة لم تكن مثل كل النساء ..
كانت عزيزته سارة ..

قالت سارة :

- جيري .

- سارة ..

ثم تبادلا قبلة ثانية !

قال جيري في رجاء :

- لن تنسيني يا سارة ، اليس كذلك ؟

أجابت باخلاص :

- لن أنساك !

- هل تكتبين الي ؟

- الحقيقة إني كسولة فيما يتعلق بكتابة الخطابات .

- ولكني أرجوك أن تكتبي ، سوف أشعر بوحدة قاتلة ..

ابتعدت عنه قليلاً ..

ثم ضحكت مرتجفة قائلة :

- لن تشعر بوحده قاتلة ، سوف تجد عشرات الفتيات هناك .

- على فرض وجود هـذه الفتيات فسوف يكن ثقيـلات الظـل ، صدقيني يا عزيزتي ، لن يكون حولي إلا أشجار البرتقال .

- حبـذا لو أرسلت لي صندوقاً من البرتقال من وقت لآخر .

قال في حراره :

ـ طبعاً ، سوف أفعل ذلك ، اوه .. سارة إني أفعل المستحيل من أجلك .

ـ حسنا .. هذا فصل الخطاب ، اشتغل في جد حتى تصبح زارع برتقال ناجح !

ـ أقسم لك إني سأبذل كل جهدي .

تنهدت ثم قالت :

ـ كنت أرجو لو أنك لم تكن ترحل بهذه السرعة ، كان يسعدني أن اجدك بجانبي نتبادل الأفكار والآراء .

ـ كيف حال كولدفيلد ، هل اصبحت ترتاحين اليه

ـ لا .. نحن لا نكف عن الشجار .

ثم اضافت في نبره انتصار :

ـ ولكني أشعر اني سأنتصر !

فنظر اليها جيري في انزعاج ، ثم قال :

ـ هل تعنين ان امك .

احنت رأسها بارتياح .

ولكن جيري تضاعف انزعاجه ، قال :

ـ سارة ، اتمنى لو انك كففت عن هـذا الموقف .

ـ تقصد ألا أحارب كولدفيلد ، سوف احاربه بأظافري وأسناني ، لن اسلم أبداً ، يجب انقاذ ماما .

ـ اتمنى لو نزعت يدك من كل هذا ، إن امك تعرف ماذا تريد .

قالت في إصرار :

ـ قلت لك من قبل إن ماما ضعيفة ، إنها تتأثر لمتاعب النـاس وتبني تصرفاتها معهم على اساس هذا التأثر ، إنني احاول انقاذها من زواج فاشل .

تمالك جيري شجاعته وقال :

ـ أعتقد إنك غيوره يا سارة !

نظرت اليه في حنق وصاحت :

ـ حسنا ، إذا كان هذا هو رأيك فيجدر بك ان تنصرف الآن !

ـ لا تغضبي مني ، لا بد انك تعرفين ما انت مقدمة عليه .

قالت سارة في ثقة :

ـ أعلم ذلك بالتأكيد .

* * *

- ٣ -

كانت برنتيس تجلس امام دولاب الملابس عندمـــا دخلت لورا ويستابل .

– هل تشعرين بتحسن الآن يا آن .

ابتسمت وقالت :

– نعم ، فقد كان غباء شديد مني ان اترك نفسي لعواطفي هكذا .

– لقد جاء شاب الآن لزيارة ساره ، اسمه جيري ليولد .

سألتها برنتيس :

– ما رأيك فيه يا ويتستابل .

– إن إبنتي تحبه طبعاً .

قالت برنتيس في توسل :

– أوه ، ارجو الا يكون ذلك صحيحاً .

هزت لورا رأسها وقالت :

– لا فائدة من الرجاء .

ضحكت آن في مرارة وقالت :

– يبدو إني فاشلة في كل شيء

– إنه شاب فاشل ، اليس كذلك

تنهدت برنتيس وقالت ·

– نعم ، إنه لم ينجح في اي شيء ولا يريد ان يفعل شيئاً جاداً ، وأعتقد انه لن ينجح في حياته على الاطلاق ، إن ابنتي تحدثني كثيراً عن نحسه وسوء حظه ، ولكني أعتقد أن الأمر أخطر من مجرد النحس وسوء الحظ . ومن الغريب إن ابنتي تعرف شباناً افضل منه بكثير .

اجابت لورا :

· ولكنها تجدهم ثقلاء الظل ، هذه هي العادة ، الفتاة الجميلة الناجحة تغرم بالشاب الفاشل السيء الطالع ، اعترف ايضاً إني وجدت ذلك الشاب جذاباً للغاية !

قالت برنتيس ·

– حتى أنت يا لورا ؟

أجابت لورا بهدوء :

– انا أيضاً انثى أحمل في نفسي ضعف الأنثى أمام الذكر الجميل ، والآن طبت مساء يا عزيزتي ..

- ٤ -

وصل ريتشارد إلى شقة مسز برنتيس في الثامنة مساء .

كان على موعد للعشاء مع آن ، أما سارة فإنهـا كانت مدعوة للعشاء والرقص خارج المنزل .

وعندما دخل ريتشارد الشقة وجد سارة جالسة في غرفة الاستقبال تصبغ أظافرها بالمانيكور ، وكان الجو مليئاً برائحة النوشادر المنبعثة من المانيكور .

رفعت سارة وجهها اليه ، ثم قالت في أدب :

– هالو ريتشارد . .

ثم أخـذت تتابع طلاء أظافرها .

أخذ ريتشارد ينظر اليها في قلق ، فقد كان يشعر بأنه يكرههـا بدون حدود .

كان ينوي في البداية أن يكون عطوفاً معهـا ، وتصور نفسه في دور الأب الثـاني على هذه الشابة اليتيمة ، ولكن الأمور سارت على عكس ما كان يريده وملأت قلبها بالبغض لها .

كما كان يشعر أيضاً بأنها تملك في يدها قيادة الموقف .

كان برودها وهدوء أعصابها يحطم أعصابه ويملؤه بالذل والهوان ،

لم يكن في حياته رجلاً مغروراً ، كان دائماً متواضع واثق من نفسة ولكن سارة هبطت بهذه الثقة إلى الحضيض ، كل محاولاته للتقرب منها باءت بالفشل

كان يشعر أنه يقول الشيء الخطأ ، ويعمل التصرف الخطأ طوال الوقت ، ثم بدأ كرهه لسارة يخلق عنده احساساً بالغضب من أمها .

لماذا لا تقف برنتيس إلى جانبه ؟ لماذا لا تفرض على ابنتهما ان تعامله بالحسنى ؟ لماذا تأخذ هذا الموقف السلبي ؟ إنه موقف يزيد الطين بلة ، ويجب على برنتيس أن تدرك ذلك .

مدت سارة يدها واخذت تحركها لكي يجف الطلاء .

وبالرغم من يقين ريتشارد إنه من الأفضل الا يقول شيئاً ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول :

— اصابعك الآن تبدو وكأنها غارقة في الدم ، انا لا افهم لماذا تصبغ الفتيات اظافرهن بهذا اللون الأحمر ..

أجابته في هدوء :

— حقاً ؟

شعر ريتشارد بأن هذا السؤال البسيط هو بداية أزمة جديده ، وبحث في ذهنه عن أرض امنة ، قال :

— لقد قابلت صديقك الشاب جيري ليولد هذا المساء ، وقد اخبرني إنه سيذهب إلى جنوب افريقيا .

— نعم .. سيسافر يوم الخميس القادم .

رد ريتشارد متفلسفاً :

- سيكون عليه ان يعمل بجهد شديد اذا كان يريد أن ينجح في جنوب افريقيا ، إنها ليست بالمكان الذي يصلح لشاب لا يحب العمل .

سألته سارة :

- هل تعلم كل شيء عن جنوب افريقيا ؟

كل هـذه البلاد النائية متماثلة ، لا ينجح فيها إلا الرجل ذو العزم .

- جيري شاب ذو عزم .

ثم أضافت :

- إذا كان لا بد من استعمال هذا التعبير ..

وما عيب هذا التعبير !

رفعت سارة وجهها اليه ، ونظرت اليه نظره باردة ، ثم اجابت في جفاء :

- إنه تعبير مقزز ، هذا كل ما هنالك ..

واحتقن وجه ريتشارد احمراراً .

وصاح بعد ان فقد السيطره على اعصابه :

- من المؤسف ان امك لم تحسن تربيتك !

ولكنها لم تغضب ..

نظرت اليه في هدوء ، ثم ابتسمت وتمتمت :

- هل أسأت الأدب .. أنا اسفة حقاً ..

ولكن اسفها ومبالغتها في الأسف لم يهدىء ثائرته ، صاح :

- أين امك ؟

- إنها ترتدي ثيابها ، ستكون هنا بعد دقائق .

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها مرآة صغيره اخذت ترى وجهها فيها ، ثم رفعتها بيدها اليسرى واخذت تعيد طلاء شفتيهـا وتحدد باللون الأسود جفونها ..

كان قد سبق لها اتمام زينتها قبل حضور ريتشارد ، ولكنها كانت تعيد التزين الآن .. لأنها تعلم ان ذلك يضايق ريتشارد ..

كانت تعلم أنه يكره ان يرى امرأة تتزين امام الآخرين .

– البقية في الجزء الثاني –









912

s